

مختارات من الأدب العربي القديم عرض ودراسة

الأستاذ الدكتور
عبد الجواد محمد المحسن
أستاذ الأدب والنقد
جامعة الأزهر

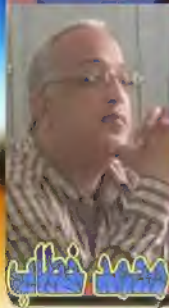
الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الغفار عبيد
أستاذ الأدب والنقد
جامعة الأزهر

٢٠٠٧

مكتبة بسفله

الإسكندرية ت. ٢٢٢٢١١١

البحر الممتد : شمس سحر الزينية



هنا سور الأزبكية غواص في بحر الكتب باحثون

محمّد خطاب

مختارات من الأدب العربي القديم عرض ودراسة

الأستاذ الدكتور
عبد الجواد محمد المحسن
أستاذ الأدب والنقد
جامعة الأزهر

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الغفار عبيد
أستاذ الأدب والنقد
جامعة الأزهر

٢٠٠٧

مكتبة بسطة

الإسكندرية ت ٢٢٢٢٤٤٤



الاختيار الأول

من أمثال العرب

للأمثال أهمية أدبية خالصة ؛ فهي صورة لوجدان المجتمع ، ومقياس دقيق لواقع حياة الشعوب ؛ ونكتسب في نظري بعدا دلاليا خاصا لا يضاهيه في دقته نتاج أدبي آخر ؛ لأن الشعر قد يصور الواقع أحيانا وقد يجنح به قلقله إلى المبالغة ، أو يهجم في أجواء الخيال ، والخطابة يدخلها التمثل ، وقد تفرض بعض ما تحويه من الأفكار دوافع خارجة عن نفس الأديب ومشاعره ورواه ، وكذلك الكتابة .

لما الأمثال لماتها تكون نتاج التفكير والصرامة ، وهي تسجيل أمين للحظة التأمل التي يرصد الإنسان فيها ما حوله ، ويتأمله بروح نقادة ، ويستخلص ما يوحى به من دلالة ، وما فيه من عبرة ، ومن ثم اكتسبت الأمثال أهميتها ؛ لامتزاجها بعاطفة الإنسان ومعانيه ، وتمثيلها لوثبات عقله الراسد ، وومضات فكره المستثار ، كما تكتسب بعدا فنيا له مكافئته وأهميته وهو صيغتها اللغوية المتميزة التي كفلت لها الذبوع والسيرورة ، وجعلت الناطقين باللغة يحرمون على إيرادها في كلامهم ، ويستأنسون بما تنطوي عليه من فكرة دالة ، أو رؤية مستبصرة ، وتنقلتها من ثم الأجيال .

ولا تختص الأمثال بلمة دون لمة ، بل هي إرث إنساني ، وخاصية إنسانية عامة ولعل في ذلك عبرة يستفيد منها أولو البصيرة ؛ إذ تعد الأمثال إرثا حكما ، وراثا حافلا بالخبرة والتجربة التي تفرزها عقول البشر في كل لمة ولدى مختلف البيئات والمجتمعات وعلى امتداد العصور ، وكلها زلاد عقلي مهم تتوارثه الأجيال ، وخيرات حياتية تضيفها الإنسانية إلى رصيدها ، كما تضيف في مجالات العلوم والصناعات والاكتشافات العملية التي تستفيد منها في بناء صرح الحضارة ، الذي يزداد

شموخا على مر العصور والأجيال .

وفي تراثنا العربي ألوان من الأمثال ، منها ما يعرف لدى العلماء بالأمثال القديمة وهي تلك التي ألفت عن العرب في العصر الجاهلي وعصور الإسلام الأولى حتى العصر العباسي ، وهناك ما يعرف بالأمثال المؤتدة وهي التي جمعت بعد ذلك ودخلت فيها أمثال من تراث الأمم الأخرى كالفرس والروم وغيرهم ممن امتزجوا بالعرب بعد الفتح الإسلامي ، واتصهروا في بوتقة الحضارة الإسلامية ولغة العرب . وهناك أمثال القرآن الكريم ، وأمثال الحديث النبوي الشريف ، وهناك الأمثال الواردة على صيغة (أقبل من كذا) ، وهذه الألوان حظيت باهتمام العلماء والباحثين قديما وحديثا فجمعوها وشرحوها ورتبوها في الأعم الأغلب على حروف المعجم ، ومن أشهر تلك المؤلفات :

- | | |
|------------------------------------|-----------------------------------|
| - الأمثال في القرآن الكريم | لابن قيم الجوزية . |
| - الأمثال من الكتاب والسنة | لمحمد بن علي الترمذي . |
| - الأمثال | لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي . |
| - أمثال العرب | للمفضل بن محمد الضبي . |
| - الدرر الفاخرة في الأمثال الصائرة | لحمزة الأصبهاني . |
| - فصل المقال في شرح كتب الأمثال | لأبي عبيد البكري . |
| - المستقصى في أمثال العرب | لجار الله الزمخشري . |
| - مجمع الأمثال | لأحمد بن محمد الميداني . |
| - زهر الأكم في الأمثال والحكم | للحسن اليوسي . |

• • •

وويلحظ في الأمثال عند سوقها والانتقال بها جانب العبارة المستفادة ، ومما يؤكد ذلك ما أورده بعض كتّاب اللغة ، يقول صاحب لسان العرب في مادة (مثل) :
 " وقد يكون المثل بمعنى العبارة ، ومنه قوله عز وجل : " فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين " فعنى السلف أننا جعلناهم متقدمين يتمتع بهم الشاؤون ، ومعنى قوله " ومثلا " أي عبارة يعتبر بها المتأخرون " .

وهذا الجانب أحد الأسباب التي يهمننا أن نستعرض الأمثال العربية الموروثة على ضوئه في هذا الفصل ، وهناك أيضا جانب لا يقل أهمية عنه في تقديرنا واعتبارنا هنا وهو المنزى الأنبيى للأمثال بحسباتها مصوغة بعبارة لها تميز أدنى محبر ، يهمننا أن نسلط عليه الضوء .

القيمة الأنبيى للأمثال :

لا شك أن جانبها كبيرا من أمثالنا العربية الموروثة تعد قطما أدبية بديعة ؛ إذ تحفل - على إيجازها - بكثير من السمات الأسلوبية المعبرة ، ولكن بعض الأمثال الذالعة على الألسنة قد تفقد جانبها من برقيها للتصويري بكثرة الدوران على الألسنة والتوارد على الأسماع ، بيد أن هناك أمثالا عديدة مما تضمنه مجاميع الأمثال ولم تشتهر شهرة الذائع المطروق لها سحرها وجاذبيتها ، وعلى الأخص عندما نقرسها للمرة الأولى .
 وتنتزع براعة أسلوب المثل ؛ إذ يعبر في بعض الأحيان بالصورة الفنية الدالة ، وأحيانا بتجسيم المعاني ، وأحيانا بالرمز ، وأحيانا بالعبارة الساخرة ...
 ونسوق بعضا من تلك الأمثال لنتبين براعاتها الأسلوبية .

من الأمثال التي لجأ قائلوها إلى صياغة فكرتها من خلال التصوير المؤثر
قولهم :

(كالحادي وليس له بعير !!) " مجمع الأمثال ٣/٢٢٢ -

والحادي هو الذي يحدو الإبل لينشطها السير ، والحذاء هو الخفاء بترديد بعض
الأشعار المعبرة ، وكانوا يختارون له أصحاب الأصوات المشجية ، وقد ورد في بيان
معنى الحديث الشريف " أرفق يا أنجشة بالقوارير " الذي رواه البخاري في كتاب
الأدب - أن أنجشة هذا كان حلياً عذب الصوت مجيداً للحذاء ، وأنه كان يحدو
بركب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض المسلمين وكان معهم نساء في
الهوداج ، فقال له الرسول ذلك : أي قلل من تطريبك وحداك ؛ لأن الإبل كانت تسرع
في السير وتتشط عند سماعها صوته فيتعبد ذلك ولكيها وبخاصة النساء ، وفي مقالة
المصطفى صلى الله عليه وسلم بلاغة جميلة إذ كفى عن النساء بالقوارير تشبيهاً لهن
في رفتهن وقلة احتمالهن بقوارير الزجاج التي تحتاج عناية خاصة حتى لا تتعرض
للكسر .

وهذا المثل الذي سقاه يضرب لمن يدعى ما ليس عنده ، أي الشخص الذي يزعم
لنفسه قدرة على أشياء أو الاضطلاع بأمور لا طاقة له بها ، وقد جاءت عبارة المثل
مصورة للمعنى تصويراً بديعاً ؛ إذ شبيهت ذلك الدعي بالحادي الذي ليس له بعير ،
واستوحت الصورة المعبرة عن المعنى من البيئة العربية ، ومن واقع الحياة فيها .
ولا يخفى ما للمثل من دلالة مضوية ؛ إذ يسخر من مسلك الأعداء النفاقين
ويصفه صنيعهم ويكشف زيف ما يدعون ، ولذلك دوره المهم في نقد السلوك الشائن
والتشنيع على الكاذبين .

وإذا تاملنا المثل الآخر :

(وعيدُ الحُبَارَى المُنْقَر) " المستقصى ١ / ٣٧٥ . "

وجدنا تشبيها طريفا صُوِّر المعنى من خلاله ؛ والحُبَارَى طائر صغير ضعيف الشأن أما المُنْقَر فهو طائر جارح مشهور بالقوة والقنك بغيره من الطيور ، وقد شاع استخدامه منذ القدم في الصيد وكان الناس يدربونه على أن يصطاد لهم الطيور .
ويضرب هذا المثل للشخص الضعيف يهدد من هو أقوى منه وأشد . وواضح أن عبارة المثل قد صاغت هذا المعنى صياغة قوية مبررة من خلال تلك الصورة المُحَسَّنة التي شرحت المعنى وبيّنته أكمل بيان .

وفي أمثالنا الموروثة التي من هذا القبيل المثل :

(لِقَطْرَةٍ بِحِرَامِهَا تُحْتَفَرُ الصَخْر) " المستقصى ١ / ٣٣٩ . "

وفكرة المثل تعبر عن تأثير الشيء القليل إذا طال واتصل . وقد عرضت العبارة المعنى من خلال صورة محسة ، ندركها ونلمسها ، ويعايشها العربي في بيئته ، وهي صورة قطرات الماء القليلة التي تترك أثرا في الصخر . ولا ريب أن الصورة تؤدي للمعنى أداء قويا ، ولا تخفى على المتأمل دلالة المثل على أهمية الدأب في العمل ، والصبر على مشاقه ، وعدم اليأس من قوة تأثيره الوقفي ؛ لأنه بدوام المثابرة على الجهد القليل المتاح تأتي النتائج المثمرة ، التي تكون نتاج الصبر ومداومة العمل ، واحتمال الصعاب ، والإصرار على بلوغ الغاية المنشودة مهما كثرت العقبات .

وفي عبارة المثل :

(اِسْتَمْعِكْ فَإِنَّكَ مَعْدُوكُ بِكَ) "المستقصى ١ / ١٥٨ ."

نرى للمعنى قد وضحت الصورة وقربته للأفهام ، ودلت عليه تشبيها مقننا ؛ فهو يضرب في التحذير من الأخطار المتوقعة ، وأخذ الأبهة لملكاة للتدائد . ولا مرة في أن من يركب دابة تدعو به يكون أحوج إلى أن يستمعك برجلها وزمامها حتى لا تضره أرضا ويكون مصيره المسقوط الذي ربما عرضه للهلاك . والمثل كما هو واضح من سياقه مستوحى من البيئة العربية ، مصير عن موجوداتها ووسائل العيش والتثقل في ربوعها .

وفي المثل الآخر :

(غَيْرَ رَكُضَتُهُ لَمْهُ) "مجمع الأمثال ٢ / ٢٣٦ ."

وهو يضرب لمن يظلمه ناصره ، أي من يتعرض للأذى ممن يكون الشان لهم عادة أن يكونوا حماة المدافعين عنه . وقد علونت الصورة هنا على طرح الفكرة في عبارة موجزة ، ومن خلال التعبير عن حقيقة ملموسة في حياة العرب الذين كان الحيوان جزءا من حياتهم ومصدرا يعتمدون عليه في كثير من شئون عيشتهم ، وهي صورة يدركها من يعيشون ذلك الحيوان ويلاحظون طباعته ؛ إذ تركض الأم أحيانا صغيرها وهو يبحث بضرعها ، أو يضيقها على نحو ما فلا تجد وسيلة لتكليه سوى أن تركضه

وهنا تجسم عبارة المثل تلك المفارقة الغريبة ، أي أن يتعرض الابن للعقاب والأذى من أمه التي يلزم بحكم القنطرة أن تحنو عليه وتكف عنه . ويوحى المثل أيضا بأن من يستمدى عليه باصره وحاميه فلا ينبغي أن يطلب العون من أحد آخر ؛ لأنه لن يجد من يتطوع للدفاع عنه في حالته تلك ، وأن عليه وحده أن يتحمل نتيجة ظلم نفسه .

وفي قولهم :

(يا عابدُ لَذَكْرٍ خَلَا) " مجمع الأمثال ٣ / ٣١٢ " .

نجد المفزى من المثل مطروحا من خلال الصورة التي تشي بمعناه ، وهو يضرب في الدعوة للنظر في العواقب ، وتحسس نتائج ما يقدم الإنسان عليه من أمور تتطلب روية وحسن تقدير للأمور ، وقد اقتصت الصورة في عبارتها الموجزة كل تلك المعاني والدلالات ؛ فالشخص الذي يحزم أمتعته للمفر أو الرحول يكون حرصا على توثيق عرى المقَد التي يربط بها أمتعته ، وهنا يقول له المصالح البعد النظر :
تَرَقَّقْ في توثيق المقَد التي تجمعها حول حقائقك أو أمتعتك ؛ لأنك ستحتاج عند بلوغ مقصدك ومنتهاى مفرك أن تحمل تلك المقَد وتلك تلك الأريطة ؛ فلو لم تراع ذلك عاد العزم والشد أمتعتك ذلك في الحل ونقص المُرَى .

تجسيم المعاني :

لا ريب أن الذهن يستوعب الأمور المعصية أكثر من إدراكه لبعض المعاني ؛ ومن هنا درج البلغاء على طرح المعاني الدقيقة في إطار تصويري مدرك بالحواس ؛

مما يساعد الإنسان على إدراكها ، ويجعلها متقررة في الأذهان ، واضحة كالأعيان ، وهذا النهج الأدلّي مستفيض في البلاغة القرآنية ، والبلاغة النبوية ، ومستفيض كذلك في إبداعات الشعراء والخطباء ولرباب البصر بلسان العرب وطرقتهم في التعبير . ولم تخل الأمثال العربية للموروثة من اصطناع تلك النهج البليغ الذي يقرر الفكرة ويجعلها ماثلة جليلة .

ومن شواهد ذلك نسوق تلك الطائفة من الأمثال :

قالوا في التعبير عن المتعة التي تصاحب الشيء المحبوب :

(الذُّ من الأمن) " المستقصى ١ / ٢٢٠ . "

فقد صورت عبارة المثل الأمن وهو أمر مطوي يدركه بالحقل بالشيء المادي ذي المذاق الطيب ؛ لتقريب المعنى وتوضحه وتجسمه في إطار مادي محس في حين أنه في الأساس مطوي تتركه النفس ، ولا يأتوها عن طريق الحواس .

وفي أمثالهم التي من هذا القبيل قولهم :

(قَبِلْ الإيمانَ وَالفَتْك) " مجمع الأمثال ١ / ٥٠١ . "

فقد صوّرَ الإيمانَ والفَتْكَ وهما أمران مضموران بشيئين ماديّين قد ربط أحدهما الآخر وأحكم وثقّه ، وجاء ذلك على سبيل التجسيم لتقريب المعنى وتأكيد .

وهذا المثل يعد حديثاً نبوياً شريفاً ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مطلق به ، ومعناه أن الإسلام حرم على المؤمن الخيلة ، وهي للقتل مفاجأة وعن مكبر . وهكذا كل ما نطق به للمصطفى صلى الله عليه وسلم يعد حديثاً نبوياً ، بحسبنا من أقواله عليه السلام ، كما يعد مثلاً بالنظر لذيوعه وسيرورته ، ومن أقواله صلى الله عليه وسلم التي ذهبت أمثالا وضممتها مجاميع الأمثال ما يلي :

- (الناس كلهم مائة لا تجد فيها راحلة) * مجمع الأمثال ٣ / ٣٨٤ .
- (عمالكم كأعمالكم ، وكما تكونون يولي عليكم) * نهاية الأرب ٣ / ٢٠٢ .
- (المرأة على دين خليله فلينظر امرؤ من يخالل) " " " " " .
- (سبقك بها عكاشة) * المستمى ٢ / ١١٦ .

ومن الأمثال التي فيها تصيم للمعاني قولهم :

(إن العَجَزَ والقَتَوَاتِي تزولجان فالتَّجَنَّا الفقير) * المستمى ١ / ١٠٧ .

فالعجز أي الكسل ، والقَتَوَاتِي أي التراخي وهما أمران معنويان قد جسا كليهما في صورة زوجين قد جمع بينهما لاحتج عنهما وتماثل منهما الفقر الذي هو أيضا من الأمور المعنوية ، وهكذا صيرت جملة المثل عن المعنى المراد عن طريق التصوير والتجسيم . وواضح أن الصورة التي طرح المعنى من خلالها قد أعانت على بروزه وقضاح دلالاته ؛ والحيرة المستفادة من المثل تتركز في الدعوة إلى الطراح للكسل ولجنتاب القَتَوَاتِي لأن اجتماعهما في مصلك أي شخص كليل بأن يورثه الفقر ويؤدي به إلى الضياع ، فهما سببا كل فشل وأسا كل هوان ، وبثرتا كل حرمان .

فالإسنان المقلد عليه أن يجد ويعمل ، ويدافع الضعف والتواني ، ويخالف الكسل والتسوية ، فالحياة جهد موصول ومعنى ذؤوب لا يعرف الهوادة ، وجد لا موضع معه للبحث للفارغ وللتضييع المردي ، والإهمال السيء العاقبة .

التعبير الساخر :

وهناك طائفة من الأمثال جاءت في إطار تعبيرى ساخر ، ولعل هذه النوعية من أسبق ما عرف في أدبنا العربي من أساليب السخرية والتهكم ، وهي تعبر عن رغبة قائلها في تعميق الإحساس بالمعنى المطروح أو للخطر المبرر عنه ، ولكثر الأمثال التي من هذا النمط تكون مبنية على رؤية ناقدة لبعض ظواهر السلوك الإنساني ، ورغبة في إبراز ما تطوي عليه من مغالطة تبعث على الدهشة ، وتثير الحنق في نفوس العقلاء فلا يجدون في التعبير عنها إلا صياغتها في ذلك الإطار البلاغي البغيه محاربتها وإعلان السخط على مقترفيها .

وكذا تأتي السخرية في عبارة المثل موجهة إلى سلوك معوج ، أو تصرف فيه إجحاف بحقوق الآخرين ، أو إلى مسلك غريب ، أو خلق ذميم ، وكذا تأتي في صورة ردٍّ لاذع أو تعليق ساخر يدل على نكاه وحضور بديهة
فمن الأمثال التي تقال في السخرية من فعل مجحف - قولهم :

(لَحْشَفًا وَسَوْءَ كِبْلَةٍ (١) * مجمع الأمثال ١/ ٣١٧ .

والحشف : أردأ التمر . ومعنى المثل - الذي يرد هنا على لسان الشخص للمخبون في صفقة ما - أجمع رداءة التمر وسوء الكول ، فالذين إذًا قد عمَّ الصفقة من جرائبها

كلها ، وهو يضرب لمن يجمع بين خصلتين مذمومتين . وقد علون أسلوب الاستفهام
الإنكاري في الإيحاء بتلك السخرية المريرة .

ومن تلك النوعية من الأمثال قولهم :

(أَكْمَفًا وَإِمْسَاكًا !!) " المستقصى ١ / ٢٩٥ . "

والكمف : العبوس وتعطيب الوجه . والإمساك البخل ومنع المعروف . بقوله الشخص
الذي يطلب عوناً من مومس فيلقى منه الإعراض والحرمان . فهو يقول له : أتجمع
عليّ للعبوس والحرمان ؟! . وهو شبيه بسابقه في صيغته ودلالته .

ومنها أيضاً قولهم :

(أَغْبَرَةً وَجُبْنًا !!) " المستقصى ١ / ٢٦٥ . "

أي لتكون منك غيرة ولنت جبن . ويكرر شراح الأمثال في قصة هذا المثل أن امرأة
من العرب قالت تعير به زوجها ، وكان قد تخلف عن الخروج مع القوم لغزو العدو
ولبث في منزله ، فأرى امرأته تنظر إلى القوم من فرجة بالبيت لضربها ، فقالت له
تلك العبارة . وكأنها تذكر عليه أن يمارس فعل الغيرة على بيته وحرمة وهو جبان
متخلف عن لقاء الأعداء وحملية الحرمات .

ومن الأمثال الواردة في صيغة تهكمية ساخرة قولهم :

(يحملُ شَنٌ وَيَقْدِي لَكِيْزٌ ؟!) " مجمع الأمثال ٣ / ٥١٧ .

وهو يضرب في التعبير عن سوء الجزاء لمن شأنه أن يُحصَن إليه . وشن ولكيز أخوان كان من قصتهما كما ذكر شارحو المثل : أنهما كانا مع أمهما في سفر ، وكانت الأم تحب " لكيزا " وتنتهي عليه كثيرا وتفضل على أخيه " شن " ، فأحفظ ذلك " شنا " وأغضبه ، وكفوا قد نزلوا في سفرهم ذلك بموضع للراحة ، فلما أرادوا الرجول فدت الأم لكيزا ودعت شنا ليحملها فحملها وهو غاضب وقال تلك العبارة التي تليض سفرية ومرارة " يحمل شن ويقدي لكيز " .
وأريب من معنى ذلك المثل قول الشاعر :

وإذا تكونَ كريهةً أذخى لها وإذا يُعلمنُ الحِمْسُ يُدْعَى جُنْدُبُ

التعبير بالرمز :

ومن الميزات الأسلوبية للأمثال اعتمادها أسلوب الرمز لتأكيد مضمونها المراد ، ونعني بالرمز هنا أن يأتي طرح فكرة المثل ومضمونه من خلال الإيحاء إلى تلك الفكرة والتلميح إليها دون التصريح أو التقرير ، ولذلك النمط من الأداء الأسلوبى خاصيته المميزة في تأكيد المضمون المراد ، وعرضه مؤيدا بدلائله التي لا تدع موضعا للارتياب فيه .

وإذا أردنا أن نلمس الفارق بين النمط التقريرى الساذج والنمط الآخر الإيحائى الرمزي فلنتأمل التمايز بين العبارةين التاليتين في أداء الفكرة المطروحة : عندما نريد

أن نعبّر عن أن إسماعا ما تعرض لمكروه فأراد التخصّص منه ولكنه بالغ في تجنب الخطر حتى وقع في خطر مقابل له - فبقينا نقول في العبارة التقريرية : لقد أراد فلان أن يتخلص من كرب فوقه في أشد منه . إذا فطنا ذلك قلن نقرر حقيقة ما حدث بأسلوب تقريري خالص ، وهو ما عبّر عنه العربي القديم بأسلوب رمزي ذي دلالة موحية بقوله الذي سار مثلا :

(اضطرّة المثل إلى متعلّقة ١) " مجمع الأمثال ٢ / ٢٦٤ .

والفارق واضح بين العبارة الأولى التقريرية وعبارة المثل فالعبارة الأولى عرضت الفكرة مجردة من الجو النفسي الذي تشاعته عبارة المثل والمفارقة الصارخة التي جعلت ذلك الشخص متأرجح بين طرفيها المتناقضين ، إذ هرب خوفا من خطر السؤل ذي الماء العارم فأبعد في هربه حتى انقطع عن أي مكان فيه ماء فعرض نفسه للهلاك عطشا !!

ولمى الأمثال الموروثة التي عبرت بالجملة الموحية قولهم :

(إنك لا تجني من الشوك الحب) " فصل المثل / ١٣٩ .

وواضح دلالة عبارة المثل على أن الإنسان لا يجني إلا شيئا من جنس ما زرع ونمى فلا يتوقّع عاقل أن يزرع شوكا ثم ينتظر أن يجني منه غنما ، ولا يحتاج إيهاء جملة المثل إلى أن نبدي محوله القول ونعيد ، فهو يرسم صورة للفكرة التي يساق المثل لتأكيدا وهي أن الإنسان لا يحمّد إلا نتاج ما زرع .

وفي المثل الآخر الذي من هذا القبيل :

(لا يُرْمَلُ السَّقْإُ إِلَّا مَمْسُكًا سَقَا) " المستقصى ٢ / ٢٦٩ " .

وهو يضرب الشديد الحرص ، الناظر للمواقب . وقد رمزت عبارة المثل للمعنى بممساك الحباء ، وهي دويبة متصاقة معروف عنها خلسة التلون بلون الشيء الذي تكون فيه ، والحرص الشديد في التنقل عبر الفصوص وسوقان الأشجار ، فلا تترك الفصن حتى تتمكن غصنا آخر . وهكذا يكون سلوك الحريص المتروى للذي يقدر مواضع الخطر قبل أن يقدم عليه .

وقد يكون الرمز في عبارة المثل لمعنى مستفاد من قصة ذاع أمرها واشتهر خبرها . ومن شواهد ذلك قولهم :

(يَذْكَأُ لَوْكْتَا وَفُوكَا نَفْخ) " لسان المثل ١ / ٣٦١ " .

وهو يضرب لمن تورط في أمر لا يستطيع أن يلقى اللوم فيه على شخص آخر . وأصل قصته أن جماعة أرادوا اجتياز نهر ، وكان بعضهم لا يحسن السباحة ، فاحضروا قربة ثم نفخ كل منهم في قريته وربط فوفتها ليطبس الهواء بداخلها فتطفو على الماء ويتعلق بها حتى يعبر النهر ، ولما بدلوا في الاجتياز تبدد الهواء الذي كان في قربة أحدهم ، فاستغاث برفاقه عندهما أشرف على الخرق ، فقال له آخر : " يداه لوكتا وفوكا نفخ " ومعنى لوكتا : ربطتا . فهو يقول : له أفت الذي جلبت لنفسك الهلاك ، لأنك أفت الذي نفخت الهواء وربطت قم القربة !

وهذا نرى معنى المثل قد بُيِّنَ من خلال تلك الواقعة للتشابه بين الموقفين . فقد مثلت حال من يتسبب في توريط نفسه بحال صاحب القربة في القصة التي سبق المثل تعقيباً عليها .

ومن ذلك القليل قولهم في مثل آخر :

(مَسِيَ مَخِيلٌ بَعْدَهَا لَوْ صَبَحِي) " مجمع الأمثال ٣ / ٢٠٢ . "

وهو يضرب للشخص الذي اكتسب ثقة في موقف ما كجعله يعمل مستقبلاً دون خوف من أن يعترض عليه أحد . وقصته أن " مخيل " هذه كانت جارية لعمار بن الظرب العدواني ، وكان عمار أحد حكماء العرب المشهورين ، وكانت الجارية ترعى عليه غنمه ، وكان كثير الاعتراض على مسلكها في الرعي ، من حيث توقفت الخروج بالغنم والعودة بها من المرعى . ثم إن عماراً أشككت عليه فتوى قصده فيها قوم من العرب في أمر غنثى ، فسهر لوالى يبحث لها عن حل ، فأسقطه الجارية بالجواب الصحيح إذ قالت له : أتبعه المبال ؛ فأوتئها بال فهو هو . نطى : أحكم بأن يتبع أثر بوله ، فإن كان يحدث من عضو الذكورة فهو ذكر ، وإن كان من عضو الأنوثة فهو أنثى . ففُرجَ عن عمار وحكم بهذا الحكم ، وقال الجارية : " مسى مخيل بعدها أو صبحي " . أي بعد معاونتك لي في جواب هذه المسألة القطى لي رعى الغنم ما تشكين .

فقد وضعت فكرة المثل ودلالته وهو أنه يقال لمن يباشر عملاً لا اعتراض لأحد عليه فيه - وضع ذلك المعنى بإزاء قصة الجارية مع الحكيم المشهور أمره عند العرب .

• • •

وهكذا رأينا فنونا من تلوين الأسلوب حفلت به أمثالنا العربية الموروثة مما يؤكد حواسنها الأدائية المتميزة ، ويكشف عن جانب من قيمتها الأكاديمية بحسبها جملة موجزة ، تحوي فكرة ثاقبة ، وروية إنسانية نافذة ، ولمحة دلالية متميزة .
وهذا للملمح الأسلوبى المتفرد هو أحد الجوانب التى تروى المتأمل لأمثالنا القديمة . فمادّا عن الجانب الآخر الذى تستقيده من نقرسنا لهذا الباب من أبواب أدب العرب ؟؟ . هذا ما نعرض له فى المبحث التالى .

القيمة الفكرية للأمثال :

وهو جانب لا يقل أهمية عن الجانب الذى تقدم الكلام عليه ، وتعد الأمثال الموروثة مينا ثرا للفكر النابه ؛ إذ تحفل بخلاسة تجارب العقلاء ، وتأملات الحكماء ، يطالعها المتأمل فيجد فيها مناعا لعقله ، وزادا لخبرته ومعارفه بحقائق الحياة وطبائع البشر ، وهى حقائق باقية على مر العصور ؛ لأنها تلخص ظواهر إنسانية مرتبطة بتكوين الإنسان وميوله وزوابعه ، وترصد دخائل النفوس ويواعث العلوك التى تتنوع بتنوع بني البشر فى مكوناتهم النفسية ، وما ينطوي عليه كل منهم من ميل للخير والفضيلة ، أو نزوع للشر والردية .

ومن سمات هذا الحطاء الفكرى للأمثال أنه عطاء لا يضمه نسق عقلى منتظم ، بل يأتي فى صورة ومضات فكرية متناثرة ، تتناول ظواهر شتى ، وحقائق متحدة ، فمن السبيل إذاً على الباحثين وضعها فى أطُر علمة تلم شتى ، وتجمع نثارها ، حتى لتجد الشراح القدامى الذين يوتروا الأمثال بها لموضوعاتها قد وقعوا فى خلط شديد ، ولم يتسن لهم أن يحصروها ، ومن ثم بقي ترويبها على نسق حروف للمعجم هو أنسب الوسائل لحصرها والوقوف على معانيها .

فكيف إذا يمكننا الاستفادة من عملتها الفكري ؟

في تقديرنا أن الاستفادة يمكن أن تتحقق إذا أولى الباحثون في الأدب العربي الأمثال الموروثة عناية تبرز أهميتها ، وتناسب ما لها من قيمة فكرية ودلالية وتعبيرية ، وذلك بأن يفرقوا لها في دراستهم مجالاً أوسع ؛ لأن العناية بها تكاد تكون معدومة ، وتقتصر في فصول هيئة الشأن نكتي عرضاً ، ولا تكفي ما للأمثال من قيمة ، ولا تعرض من عطائها ودلالاتها سوى النزر اليسير .

وبهذه في هذا المبحث أن تعرض جانباً من القيمة الفكرية للأمثال ونكتي من ذلك بقيمتين جوهريتين :

أولهما : الأمثال وخبرة الحياة .

الأخرى : الأمثال وحسن الاستفادة من الموقف .

أما عن عطاء الأمثال الدال على خبرة الحياة فهو من أوسع ما يستفاد منها من جانب قيمتها الفكرية ؛ فلا يزال المتأمل للأمثال من هذا الجانب في دهشة من عطائاتها الدالة ، وحكمها النافعة ، وخبراتها الثرية ، وكلُّه يتلقى نصائح قيمة ، ووصايا نفيسة من حكماء مجرب قد خبر الحياة ، وعالج مشكلاتها ، واستنتج خلاصة تجاربها وحكمها وأثر بها عزيزاً يحضنه النصيح ، ويؤثره بالفكر الصائب ، والرأي السديد .

ونعرض هنا طائفة من الأمثال التي تؤكد ما قرأناه :

جاء في أمثالنا الموروثة قولهم :

(كُلُّ امْرِئٍ بِطَوَالِ الْعَيْشِ مَكْتُوبٌ) * مجمع الأمثال ١٢٤/٣ .

وهو يلخص ظاهرة يعنى منها الإنسان على جهة العموم ، وهي ظاهرة الاغترار بطول الأجل وامتداد العمر ، وهو يسبب ذلك كثيرا ما يُخدع عن نفسه ، فلننظر كيف صورت لنا عبارة المثل تلك الحقيقة التي لا يماري فيها أحد بصورة من بيني آماله على كذبة كبرى يكون هو أول ضحاياها ، ولما كانت مداخل ذلك الاغترار وأسبابه فإن كلاً منا كما أكدت عبارة المثل مكذوب عليه ومخدوع عن نفسه ومصيره .

وقالوا أيضا :

(تَمْرَةٌ وَزَنْبُورٌ) " المستقصى ٣٧/٢ " .

وليه لرى حقيقة مثلية ، وحكمة صائبة ، يرضيها عنها العربي في تلك الجملة الموجزة التي تتضمن معنى وتجارب يطول بيانها وشرحها ، فالحياة خير ممزوج بالشر ، ولجاح محفوف بالمعاناة والكفاح ، تماما كما تلخص عبارة المثل صورة حلوة التمرة التي يجنيها مجتليها من رؤوس النخل بالزنبور الذي قد يلدغه وهو يجنيها ، فلم تخلص له حلوتها ، ولم تصف له لذتها .

فعلى المقلد إذا أن يدركوا تلك الحقيقة ، ويوطنوا أنفسهم على تحمل مصاعب الحياة ومكائده مكلرها ومرارتها ، وصدق الله العظيم القائل " لقد خلقنا الإنسان في كبد " .

ومن ألقوا لهم التي تستلذ خبراتها وتجاربها قولهم :

(لَا تَتَنَمَّ الْحَسَنَاءُ ذَلَمًا) * فصل المقال / ٣٢٩ *

وهو مثل نابع من خبرة لقلته بطريق الناس وما جرى عليه أمرهم ؛ إذ تختلف أدواقهم ومشاربهم ، وقد يدخل بعضهم الحقد على الآخرين ، فلا تستريح نفوس الحاكدين منهم للإكثار للحسناء بتميزها ، وهكذا القسآن في معظم شؤون الحياة وميادينها ؛ إذ يجد النابغون والناهبون منهم من ينقص قدرهم وينقص عليهم تفوقهم . فعلى العقلاء إذا أن يعرفوا ذلك ويضعوه في حسابهم ، ويراعوا احتمالاته ، وبخاصة عندما يتصكرون للحكم بين الناس ، أو يقرؤون سير النوابغ ومواقفهم في بعض القضايا ؛ لأن بعض تلك الاتهامات قد تكون نابعة من حقد ذنون ، أو حسد جرت العادة بتوقع مثله بين أهل كل زمن ، وبخاصة إذا كفوا ممن يحترفون عملا واحدا أو يزاولون نشاطا يمكن أن تشتمل بينهم المنافسة بسببه .

وكلوا أيضا في أمثالهم :

(أَلْجَسَتْ عُنْدِي فَتُكَا) * فصل المقال / ٣٦٤ *

وهو يصور حقيقة واقعة في حياة الناس وعلاقاتهم الاجتماعية ، تتمثل في أن تهاون التقيم أو الرئيس مع من له عليه القومية أو القرابة قد يجره عليه ، ويجعله غير هائب له ، فوفد ذلك التهاون من الرئيس المروسين ، ولا يستطيع أن يعصمه بزمام الأمر . وتلك حقيقة واقعة يلصقها الرئيس في مروسيه ، ويصحبها الأستاذ مع تلاميذه ، ويعيشها الأب في بيته .. وهكذا في كل نواحي الحياة . فعلى الحكيم البعيد النظر أن يستفيد من التجربة التي يقرها ذلك المثل ، فيجعل

بينه وبين من يقومهم حداً دقيقاً لا يتجاوزوه هو بالتهاون والتساهل ، ولا يسمح لهم أن يتجاوزوه بالتجرو والتطاول ، وبذلك تبقى لكل من الفريقين حدوده التي لا يتعداها ، وحقوقه التي ينبغي أن تراعى . وهكذا ترى عبارة المثل على ليجزها وتركزها قد أصطلنا معنى كبيراً وفائدة عظيمة نفيدنا في مختلف شئون حياتنا .

وقالوا في أمثالهم :

(ليس عليك نعمة فلتسحب وجبر) * المستقصى ٢ / ٣٠٦ .

ومضى المثل ودلالته مأخوذ من استعارة أحدهم ثوب غيره وعدم حفاظه على ما استعار ، فيقال له ذلك ، أي إنك لم تتعب في غزل الثوب ولا نسجه وحيآكته ،... ومن ثم كان فقدان الإحساس بقيمة ما بذل فيه من جهد ، وما تطلبه من عناء . وهو يضرب لمن لا يشعر بقيمة ما هو فيه من نعمة لأنه لم يتعب في تحصيلها . وهي ظاهرة مألوفة في حياتنا نعلمشها ونشكر ويلاتها ، ولعلها تبدو أكثر وضوحاً في منالك كثيرين من أبناء الموسرين ممن نشأوا متكئين في أفناء اللز والنعمة ، فتجد أكثرهم - إلا من هدى الله - يتلّفون ويخربون غير عابئين بما يمنعون ؛ لأنهم لم يتعبوا في تحصيل الثروة التي يمنعون بخيراتها ، ولم يشعروا بالحرمان الذي تصبهر على لهيبه أتران البطر والأشر .

ويستفيد الحافل المتأمل من هذا المثل حكمة صائبة خلاصتها أن من طبيعة الإنسان أنه لا يشعر بقيمة الشيء وأهميته إلا إذا كابد في تحصيله ، وبذل الجهد والعرق للحصول عليه ، ومن ثم لزم أن نربي أبنائنا على تقدير جهد المجتهدين ، ونلتزم لهم الأعمال والمشاركات التي تبعدهم عن التبطّل والقراغ ، وأن نحجب إليهم

الجهد المثمر ، والعمل النافع ، ونُبْخِضَ إليهم التواكل ، والموش على عرق الآخرين .
 وقريب من معنى هذا المثل ومقزاه المثل الآخر :

(كَثُرَ الْحَبْلُ وَقَلَّ الرِّعَاءُ) " مجمع الأمثال ٢ / ٣٦ " .

فهو يقال في تنفيه المتبطلين الذين يعتمدون عائلة على جهد غيرهم ، وهو مستوحى من بيئة العرب ، وطبيعة حياتهم التي تعتمد على رعي الإبل ، والانتفاع بالبهاتها ولحومها وأصولها ، فقلل هذا المثل في أول الأمر يظهر استياءه وسخريته من ذلك السلوك : سلوك الانتهازيين الذين يختفون عند بذل الجهد ، ويتكالبون عند اجتناء الثمر .

ولا ريب في أن فعوى هذا المثل تنطبق على كثير من قطاعات المجتمع في حياتنا الحاضرة ؛ إذ يعيش كثيرون في مؤسسات الدولة وحياتها بل وعلى مستوى الأمر الصغيرة عائلة على معانة كالة كالة تعمل وتتج ويسبقها -- وبالأأسف -- عند الانتفاع الانتهازيون الذين لا هم لهم إلا التفتن في لسطواء المكافآت والمواقيل والمدافع الحيدة ، وربما استغلوا بها دون العاملين لهاكين !! .

• • •

لما النوعية الأخرى من أمثالنا الموروثة التي تصور حسن الاستفادة من المواقف ، وعدم تضيق القوس حتى ولو لم تحقق المأمول كله -- فهي أيضا كثيرة مستغنية ، يمثلها القاريء عجا من دلالتها على ذكاء العربي وحسن سياسته ، واستغلاله الموقف لصالحه ، ولحيثية الأمور ، وعدم تسرعه أو يأسه ، إلى غير ذلك من الصفات السوية ، والسلوك المحسنة عواقبه ، مما يفتقده كثيرون منا في حياتنا الحاضرة ، ونعني بسبب تضيقنا له قرأنا ومجتمعت .

وهذه شواهد لبعض تلك النوعية من الأمثال :

قالوا :

(إَلَّا حَظِيَّةٌ فَلَا لَبِيَّةٌ) " فصل لعقل / ١٩٧ " .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في تفسيره : " إِنْ أَخْطَأْتَ الْحِظْوَةَ فَمَا تَطْلُبُ بِهِ فَلَا تَلْ أَنْ تَتَوَدَّدَ إِلَى النَّاسِ وَتَكْذِبَهُمْ ؛ لَعَلَّكَ تَكْرَهُ بَعْضُ مَا تُرِيدُ ... ، وَأَصِلْ هَذَا فِي الْمَرْأَةِ تَصْلَفُ عِنْدَ زَوْجِهَا فَلَا تَحْظِي . يَقُولُ فَلَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَعِينَهُ عَلَى سُوءِ رَأْيِهِ فِيهَا فَتَهْلِكْ ، وَلَكِنْ تَحَبَّبْ إِلَيْهِ بِمَا لَمْ كُنْهَا " .

فالمثل قد قيل في الأصل لامرأة كانت تعاقب الإعراض والإهمال من زوجها ، فقال لها ذلك الناصح مقالته تلك " إَلَّا حِظْوَةٌ فَلَا لَبِيَّةٌ " والحِظْوَةُ ، من الحِظْوَةِ بمعنى القرب والمحبة ، والأَلَبِيَّةُ بمعنى التقصير : أي إِنْ لَمْ تَكُونِي ذَاتَ حِظْوَةٍ وَمَحَبَّةٍ مِنْ زَوْجِكَ فَلَا تَقْصِرِي فِي رِعَايَةِ حَقِّهِ وَأَدَاءِ مَا عَلَيْكَ مِنْ وَاجِبَاتٍ فَيُجْبَلُ كَمَا هُوَ الشَّانُ لِذِي الْأَخْرِيَاتِ ؛ فربما نفهم عدم تقصيرك إلى أَنْ يَرْجِعَ نَفْسَهُ فِي مَسْلَكِكَ مِنْكَ ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَى أَحْطَى لَكَ مِنَ الْحَقُوقِ مَا يَبْقَى عَلَى الصَّلَةِ الَّتِي بَيْنَكُمَا بَدَلُ أَنْ تَتَهَارَ مِنْ أَسَاسِهَا .

ولا ريب أنها حكمة تدل على بعد نظر وحسن استفادة من الموقف المتاح ، وعدم اليأس إذا لم تتحقق الأهداف كلها أَنْ يَنَالِ الْإِنْسَانُ بَعْضَهَا . ولو طبقنا هذا للبدا في كثير من شئون حياتنا لأَقْدَمْنَا إِفَادَاتٍ شَتَّى ، وَلَتَحَقَّقَ لَنَا بِالْقَلِيلِ الْمُمْكِنُ مَا قَدْ يَسْتَمْسِي عَيْنُنَا بِلَوْغِهِ مِنَ الْكَثِيرِ خِوَرِ الْمَتَاحِ .

وجاء في أمثالهم أيضا قولهم :

(إِنْ تَرَدَّ الْمَاءُ بِمَاءٍ لَكُنْ مِنْ) "المستقصى ١ / ٣٧٠" .

أي لأن تكون معك بقية ماء تعمل بها إلى موضع موجود به الماء أفضل وأدل على حسن التصرف وبعد النظر من أن تفرض في الأمر وتتهلون في أخذ الحيلة والاحتراز من فقدان الماء فكالا على أنك ستلقى ما يكفي حاجتك ، أو تكاسلا عن حمل ما يكفيك في سفره استقالا له ، فتعدم وجود الماء ، فتعرض نفسك للمعاناة ، وربما التلف بسبب ذلك الإهمال .

وواضح أن العبرة التي نستفدها من ذلك المثل لا تقتصر على معناه المحدود وإنما تتمدى ذلك إلى سائر ما يشبه تلك الحال في حياة الإنسان مما يتطلب حذرا واحتياطا وعدم تفريط وتضييع .

ومن هذا القبيل قولهم :

(إِنْ لَمْ تَغْلِبْ فَاحْزَبْ) "المستقصى ١ / ٣٧٥" .

أي إن استعصى عليك أن تغلب عدوك فاحذعه بُغْيَةُ الظفر به في مواجهة أخرى ، وحكي الزمخشري في شرحه لهذا المثل جواز أن يكون معنى كلمة " احزب " مأخوذا من مطلب الظفر ، فيكون المعنى على ذلك : إن لم تواتك الفرصة بقر عدوك والفتك به فاحذطف منه شيئا بعد شيء كما يفعل الظفر بحذفه !

أي عمل على إضمار قوته مرة بعد مرة حتى تصل من ذلك إلى ما تريد .
وفي المثال كما يتضح من استعراض دلالاته اللغوية دعوة إلى التوصل للمراد
بالحيلة عند إغولز القوة والخيلة .

وقالوا أيضا :

(ليس من القوة التورط في الهوة) * المقتضى ٢ / ٣٠٨ . *

أي ليس من شجاعة المرء أن يقدم نفسه في المخاطر ، إنما هي لمن يحتال
لتخليصها إذا أوشكت أن تقع في المهلكة - وهو يدخل على حسن السياسة وبعد النظر
الذين ينبغي أن يتحلى بهما الإنسان حتى لا يورط نفسه في مواقف يستعصى عليه
الإقلاّت من عواقبها الضارة ، ولا ريب أن التهور والانتفاع والفتاد للرؤية في تقدير
الأمر يكون مجلبة لسوء العاقبة ، وقد يمرض من يهالج أمور بذلك المسلك إلى أن
يندم حين لا ينفع الندم .

• • •

وهكذا أضلحتنا تلك الإمامة التي ألقينا فيها الضوء على بعض ظواهر ودلالات
أمثالنا العربية الموروثة على فوض من الفكر والفن والرأي الشديد ، كما أوضحنا لنا
جانبها من خصائص الإنسان العربي في التعبير عن فكره الدقيق للمبنى على طبع يؤثر
الكلمة الدالة والعبارة الموجزة ، ويرسل أقواله حافلة بالتصوير المعبر ، والتمويه
البارع ، وقد يجعل عبارته تقطر سخرية وتهكما إذا كان المعنى التي تعبر عنه أو
الموقف الذي تحكيه يقتضي ذلك .

وحسبنا من هذه الإمامة أنها طوقت بنا عبر يستلن تاحضر من دوحة الأكنب
العربي الحافلة بالجمال والبهاء .

الاختيار الفني

من النثر الفني القديم - تصوير الجاحظ لطبائع البخله

تمهيد :

يعد كتاب " البخله " لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ من أمتع المؤلفات التي ظهرت في أدبنا العربي في العصر العباسي ، وهو دليل مثل على مدى ما بلغت الكتابة الفنية في ذلك العصر من رقي ، ومقدار تطويع الكُتّاب لأساليبها للتعبير عن دقائق الفكر وظواهر المجتمع ، ولتوزيع النفوس ، بل وما تكنه الجوارح أحياناً ويحاول صاحبه إخفائه عن الآخرين ، ولكن يشي به قوله أو سلوكه من حيث لا يدري ، فيعبر عنه الأديب ويرسمه للناس في عبارة دقيقة ويبلان أخذ . ومن تلك الكتابات كتاب البخله الذي نستعرض في هذا الاختيار بعض ملامح أسلوبه .

فمن يكون الجاحظ ؟

وما شأن كتابه البخله ، وما ميزات نثره الفني في هذا الكتاب ؟ .

الجاحظ :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنتاني ، ولد ونشأ بالبصرة سنة ١٦٠ هـ على جهة التقريب ، وعُمر حتى سنة ٢٥٥ هـ . ولقب بالجاحظ لجموح عينيه أي تنوعهما .

كان الجاحظ من خيرة مثقفي عصره ، بل كان موسوعة حوى عقله كثيراً من المعارف والثقافات التي أتاحت له ، سواء ما كان منها متصلاً بلغة العرب وتاريخهم

وأندبهم وعرفاتهم ومعارفهم وأخبارهم أم ما كان متاحا من معارف وثقافات الأمم الأخرى التي اتصلت بالعرب في تلك العهود من الفرس والروم والهنود وغيرهم ، كما كان الجاحظ متمقاً في معرفة علم الكلام والفلسفة ، وكان معتزلي المذهب ، منظراً من منظريهم ، حتى إنه كوّن مذهباً خاصاً به كان له أتباع يوافقونه عليه عرفوا بـ " الجاحظية " نسبة إليه .

وللجاحظ مؤلفات عديدة أُنشِئ بها المكتبة العربية ، وهي وإن ضاع أكثرها فيما ضاع من تراث العرب الفكري فإن ما بقي من مؤلفاته ينهض شاهداً قوياً على سمو مكانته العلمية ، وعظم الدور الذي لعبه في التعبير عن مشكلات عصره ، وقضايا الفكر والأدب في زمانه . ومن أبرز ما بقي من مؤلفاته : " البيان والتبيين " ، و " الحيوان " و " البخله " و " مجموعة الرسائل " ... ، وهي من الشهرة بحيث لا تحتاج منا إلى أن نطيل الحديث عن موضوعاتها وبيان قيمتها العلمية .

أما كتاب " البخله " فهو من أنفس كتبه وأحفظها بالأسلوب التصويري المعبر ، وإذا كان الجاحظ في مؤلفاته الأخرى يلزم نهج الطمأنينة في تحقيق القضايا وتمحيص المسائل بحسبته يمالج أموراً جلدة ، ويتناول مسائل عقلية وفكرية لها أهميتها - فإنه في كتاب البخله وجد نفسه يمالج ظاهرة من طواهر النفس الإنسانية ، ويعرض أحوال البخله والمُتَبَخِّلِينَ والمُتَوَلِّين ويحكي طرائفهم وأخبارهم ؛ فأطلق لمملكته الأدبية العنوان لتبتكر وتبدع بعيداً عن قيود العلم وتمحيصاته . ومن ثم تظهر في كتاب البخله قدرة الجاحظ على حبك القصص ، وحسن عرضها ، وإبرازها في قالب مُشوّق .

لقد رسم الجاحظ في الكتاب الذي نعرض له صورة دقيقة لطبائع البخله ومنازعهم ، واستطاع أن يحلل ظاهرة البخل تحليلًا مستوعباً ، كما استطن انعكاسات تلك النقيصة على سلوك من تمكن من نفوسهم استبطاناً عجيباً ، بحيث غدا من التفسير

عليه بعد ذلك التحول والاستيطان أن يدل القاريء لكتابه على الملامح المميزة لكل فئة منهم .

وتجدر الإشارة إلى أن الجاحظ عالج البحث في طبائع البخله وطرائقهم وغريب أطوارهم بمنطق العالم المنتصف ؛ فلم يقف ممن حكى أخبارهم وحججهم موقف العداء ، ولم يكن من غايته أن يشتع عليهم ، أو يجاوز الحد في تصويره لهم ، بل كان يتعاطف معهم في بعض الأحيان بحسبان بخلهم هذا شيئا مركزا في أصل طبائعهم لا يجدون عنه متحولا ، ومما يؤكد ذلك ما نراه في ثلثنا القصص التي يرويها عنهم من نشاء على بعضهم ، أو نعمتهم بنعت نكل على الإقرار لهم بالفضل .

وبخله الجاحظ لهموا صنفا ولحدا ، بل هم أصناف ثنى وطوائف متنوعة ؛ فمنهم من لا يبالي بنعت الناس له بالبخل ، بل يؤثر ذلك ويمسح له ، ويسره أن يشيع عنه ذلك للقاصي والداني . ومنهم من يتحاشى هذا التثمت ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، مبالغا في إخفاء بخله . ومنهم من يحتج للإسكاف بالمال عن المتعطلين ، ويرى ذلك إصلاحا لهم ، وحثا لهم على الكدح والسعي في الحياة بدل أن يقفوا عالة على غيرهم . وهكذا جمل الجاحظ كتابه البخله معرضا للرأي والرأي الآخر ، ولم يخله من المتعة والحيوية اللذين يلزمان لاحتجاج كل فريق لأمره وتقليد زعم خصمه .

بنى الجاحظ كتابه " البخله " على طوائف وأخبار تحكي قصص عنده ممن وصموا بالبخل ، واشتهروا به ، وأغلبهم من مصرية ، من أمثال : سهل بن هارون ، وأحمد بن خلف ، وخالد بن يزيد ، والحزامي والحرثي والكندي ، ومحمد بن أبي المؤمل ، وتلم بن جعفر ... ، وغير من ذكرنا كثير .

وبإمكاننا أن نؤكد أن الجاحظ في كتابه " البخله " قد تتبع ظاهرة البخل بحسبانها طبعا في تكوين بعض الناس ، وحالها تحولا تقوفا ، دون أن يتخذها سببا في التشهير أو

السذور عن رغبة في الانتقام ، أو تنفيها عن عدوة كاملة ، كما كان شأن من سبقوه في حكاية طوائف البخله ، ولكن الجاحظ عرض أخبار البخله وأقوالهم في حيدة للعالم وموضوعية الباحث المحقق الذي يعرض الظاهرة ويحللها ويستنبط دلالاتها ، بعيدا عن الضغينة والهوى ، وانطلاقا من الرغبة في تقرير الحقيقة دون تزيد أو اقتات .

وبإمكاننا كذلك أن نؤكد أن الجاحظ لم يكد يترك من طوائف البخله ونوعياتهم وفوازعهم شيئا دون أن يكشف للقاريء أمره ، ويدله عليه ؛ فبخلوه أنماط شتى تتنوع بتنوع طبائعهم ومنافعهم في ولع الحياة ؛ فمنهم المومسون وكبار التجار ، ومنهم المقلون الذين يحرصون على القبول الذي يصل إلى أيديهم ، ومنهم من هم من أوساط الناس أو دعاتهم ومنهم أهل الفكر والعلم والثقافة وهم الذين سماهم الجاحظ " متصالي البخله " ، ومع هذا التبع من الجاحظ لطوائف البخله ومستوياتهم الاجتماعية والثقافية حرص على بيان أنماط بخلهم وطبيعة شحهم ؛ فمنهم من يبخل على نفسه وعلى الآخرين ، ومنهم من يرمع على نفسه ويبخل على أهله وولده ، ومنهم من يذاري نزعة البخل عنده ويجتهد في إخفائها ، ومنهم من يجاهر بها ولا يحيا بلوم اللاتمين ؛ بل منهم من يحتج للبخل ويدافع عن مملكه للبخله .

وهكذا لم يدع الجاحظ من أمر تلك الظاهرة دقوقا ولا جليلا إلا سلط عليه الأضواء وحلل أسبابه ودواعيه ، ورصد تأثيره ونتائجه . وحرص الجاحظ مع ذلك كله على واقعية الحوار في قصص البخله كما حرص على حسن عرضها ، وأعمل فكره وأسلوبه في سرد تلك القصص مما أشاع فيها جوا من التشويق والتأثير ؛ لأنها مثلت بينتها وعصرها وأبطالها أصدق تمثيل . وهي مع هذه الدقة في تمثيل العصر والبيئة لم تخل من البعد الإنساني العلم ؛ لأنها عبرت عن نوازع مركوزة في أصل الطبيعة الإنسانية لدى الأشخاص الممسكين ، وهؤلاء لا يخلو منهم عصر ، ولا يضمهم زمان ، ولا يفتقدهم مجتمع على اختلاف العصور والبيئات ، وتنوع الأمم والشعوب .

الجاحظ والواقعية الأداء :

حرص الجاحظ - كما ألمعنا - على إضفاء طابع الواقعية على حكاياته عن البخلاء وهدت تلك الواقعية أكمل ما تكون في عدة جوانب عني بها الجاحظ ونبه عليها ووضعها في حسبانه من أهمها :

١- واقعية اللغة : ونعني بها مراعاة أبي عثمان لواقعية الأسلوب في حكاياته وطرائفه عامة ، ومن ثم في حكاية طرائف البخلاء على جهة الخصوص .

والذي بلغت النظر أن الجاحظ كان مدركاً لأهمية هذه الواقعية ودورها في إبراز مضمون الطرفة أو الحكاية ، وإعجاب القاريء والمستمع بها إذا راعى فيها حكايتها هذا النهج ، وضبطها وفنونها وعدم التفتت بها إذا خلت من تلك الواقعية . وقد نبه الجاحظ على ذلك في مقدمة كتاب البخلاء بقوله :

" وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ولفظاً معنولاً عن جهته فاعلموا لنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يخبئ هذا الباب ويخرجه من حده ، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعلقي البخلاء ولشعاع الطعام كـ [سهل بن هارون] وأشباهه " (١)

٢- واقعية المضمون : ونعني بها أن الجاحظ كان حرصاً على ألا يثبت في حكاياته بخلائه إلا ما عرف في الواقع ولمسه للناس ، وتوقرت به الأخبار ، أما مكان من

(١) البخلاء / ٤٠ .

قبيل التزيد والمبالغة فكان الجاحظ يتوقف عنده ، وربما ذكره ليبين جهة المبالغة فيه .
مثل ما علق به عما حكوه عن بخل أهل الممازح والمديبر (١) من أن خشكتاتهم من دقيق
شعير ، وحشوه الذي يكون فيه من الجوز والسكر من دقيق خشكل (٢) . ويلحق الجاحظ
على ذلك الخبر بقوله :

" وأهل الممازح لا يعرفون بالبخل ، ولكنهم لسوا الناس حالا ، فتقديرهم على قدر
عيشهم . وإنما نحكي عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل واليسر ، وبين خصب البلاد
وعيش أهل الجذب ، أما من يضيق على نفسه لأنه لا يعرف إلا الضيق فليس سبيله
سبيل القوم " (٣)

٣- واقعية التصوير : وأعطى بها براعة الجاحظ في إبراز بخله من خلال تصويره
لهم على نحو واقعي دقيق ، يجعلهم متواتمين مع بيتهم وما تواضعت عليه مجتمعاتهم ،
من موروثات وعادات وأعراف ، وما شاع في أوساطهم من قناعات ومعتقدات .
ولنتأمل هذه الحكاية التي يصور بها الجاحظ بخل شيخ من أهل خراسان عرف
بالإمساك الشديد والتقتير المبالغ فيه ، يقول عنه الجاحظ :

" كان لا يأكل إلا ما لا بد منه ، ولا يشرب إلا ما لا بد منه . غير أنه إذا كان في
غداة كل جمعة حمل معه منديلا فيه جردقان ، وقطع لحم سكباج مبرد ، وقطع جبن ،
وزيتونات ، وصرة فيها ملح ، وأخرى فيها ثلثان ، ولربح بيضات ليس منها بد ، ومعه
خلال ، ومضى وحده ، حتى يدخل بعض بساتين الكرخ (٤) ، وينظر موضعا تحت

(١) (وهما موضعان قرب الرقة) .

(٢) الخشكلان : نوع من الكمح ، قريب مما يسمى لعمدنا (السكوت) . ومطناه بالفارسية الغبز
الجلاب . والخشكل : ما لا لب له من الشعير . (٣) البخلاء / ١٢٢ .

(٤) السكباج : لحم يطبخ بخل ، والثلثان : نبات تنسل به الثياب والأيدي . الكرخ : محطة ببغداد
على الساحل الغربي من هجلة .

شجرة وسط خضرة وماء جار ، فإذا وجد ذلك جلس ، ويسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرة ومن هذا مرة ، فلن وجد قيم ذلك البستان رمى إليه بدرهم ، ثم قال : اشتر لي بهذا ، أو أعطني بهذا رطباً لن كان في زمان الرطب ، أو عنباً لن كان في زمان العنب... فلن أتاه به لكل كل شيء معه ، وكل شيء أتى به ، ثم تخلل وغسل يديه ، ثم تمشى مقدار مائة خطوة ، ثم يضع جنبه فونام إلى وقت الجمعة . ثم ينتبه فيستسل ويمضي إلى المسجد . هذا كل دله في كل جمعة " (١).

فلننظر كيف وصف الجاحظ سلوك ذلك الخراساني البخل حتى كان القاري يرى صنيعه أمام ناظريه ، وهذا لم يتك له إلا بدقة التصوير وواقعيته ، وحرصه على أن يرسم للقاري كل جوانب الموقف بتفصيلاته الدقيقة التي لم تدع من فعل للرجل شيئاً إلا يبينه وأبرزته ، ولا ريب أن الفضل في ذلك يعود لمهارة الجاحظ التصويرية التي جعلته ينقل للقاريء الموقف برمته ، دون أن يفشل من جزئياته شيئاً .

نماذج من طرائف البغلاء :

أشرنا فيما تقدم إلى أن بغلاء الجاحظ الذين صورهم في كتابه كانوا أنماطاً شتى ، منهم الموسون الأشحاء بمآلهم الوفير ، ومنهم المقلون الذين يحرصون على ما بأيديهم ولا يفرطون في شيء منه ، ومنهم العقلاء من أهل العلم والفتح والفتنة ، ومنهم التجار وأرباب الحرف والصنائع ، ومنهم الدماء ومن هم من عامة الناس . كذلك لم يخل كتاب البغلاء من حكاية غرائب أخبار البغلاء مثل البلاد التي تشتهر أهلها بالبخل حتى صار سمة عامة من سماتهم .

ونعرض فيما يلي نماذج من تلك الطرائف :

أولا : من طرائف بخل أهل مرو :

= ما حكاه الجاحظ عن " ثمامة " قال : لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لاقط ، يأخذ الحبة بمنقلبه ثم يلقظها قبْذام الدجاجة إلا ديكه مرو ، فإني رأيت ديكه مرو تسلب الدجاج ما في مناكيرها من الحب !! . قال : فعلت أن يخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء ، فمن ثم عمَّ جميع حيواناتهم .

= قال أحمد بن رشيد : كنت عند شيخ من أهل مرو وصبي له صغير يلعب بين يديه ، فقلت له إما عابثا وإما ممتحنا . لطعمني من خبزكم . قال : لا تريد ؛ هو مرّا ، فقلت : فاستكني من ماتكم . قال : لا تريد ؛ هو صالح . قلت : مات لي من كذا وكذا . قال : لا تريد . هو كذا وكذا !! . إلى أن عدت أصنافا كثيرة ، كل ذلك يمنعه ويمنعه . إلى !! . فضحك أبوه وقال : ما ذنبنا ؟ هذا من علمه ما تسمع ؟ يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطيلتهم .

= ومن أعاجيب أهل مرو ما نكروه من : أن رجلا من أهل مرو كان لا يزل يحج وينجر ، وينزل على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكفيه مؤنته (١) . ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العراقي : ليت أني قد رأيتك بمرحى حتى لكافك تقديم بإسكانك ، وما تجدد لي من البر في كل قلعة . فلما مهنا قد أخذك الله عني .

قال : فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك القلعة ، فكان مما

(١) المولة : ما يحتاج إليه .

هوّن عليه مكابدة السفر ووحشة الاغتراب مكان (١) المروزي هنالك . فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره وفي صلبته وكفاسه ؛ ليحط رحله عنده ، كما يصنع الرجل بكنهه وموضع انسه . فلما وجدته قاعدا في أصحابه ، كتب عليه وعاقبه ، فلم يره^١ أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط (٢) . قال المروزي في نفسه : لعل إنكاره ليابي لمكان القناع ، فرمى بقناعه ، وابتدأ مسامحته ، فكان له أنكر . فقال لعله أن يكون إنما أتى من قبل العمامة ، فزعاها ثم فتسب ، وجدد مسامحته ، فوجده تشد ما كان إنكارا . قال : فقلعه إنما أتى من قبل القنصوة . وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل فقال : لو خرجت من جديك لم أعرفك !!

ثانيا : من طرائف البخل في الإنفاق :

= كان أبو يعقوب الذئبان يقول : ما فاقني اللحم منذ ملكت المال . وكان إذا كان يوم الجمعة اشترى لحم بقرة بدرهم ، واشترى بصلا بدقيق ، وقرعة بدقيق ، ، فإذا كان أيام الجزر لجزرا بدقيق ، فطبخه كله سكباجا . فأكل وعياله يومئذ خبزهم بشيء من رأس القدر وما ينقطع في القدر من البصل والباذنجان والجزر والقرع والشحم واللحم . فإذا كان يوم السبت تركوا خبزهم في المرق (٤) . فإذا كان يوم الأحد أكلوا البصل . فإذا كان يوم الإثنين أكلوا الجزر . فإذا كان يوم الثلاثاء أكلوا القرع . فإذا كان يوم الأربعاء أكلوا الباذنجان . فإذا كان يوم الخميس أكلوا اللحم . فلهذا كان يقول : ما فاقني اللحم منذ ملكت المال !

(١) مكان : مصدر مبني من كان أي كَوْنٌ . (٢) أثبته : عرفه . ولا سأل به : أي ولا سأل عنه ، وكثيرا ما تأتي كذلك بعد السؤال ، ومنه قوله عز وجل : فأسأل به خبيرا * .

(٣) البخلاء / ١٢١ ، ١٢٢ . (٤) الدقيق : منس الدرهم . ما ينقطع في القدر : ما يترقى على وجه المرق غردوا : أي صنعوا شيئا وهو الغريز المقنوت .

- حكى الجاحظ عن المصري وكان جار الدارديش قال : كان الدارديشي موسرا ، وكان ماله لا يحصى ، وكان أخوه شريكه في كل شيء ، وكان في البخل مثله ، فوضع أخوه في يوم جمعة بين أيدينا - ونحن على بلبه - طبق رطب يساوي بالبصرة دفتين ، فبينما نحن نأكل إذ جاء أخوه فلم يسلم ولم يتكلم حتى دخل الدار . فأنكرنا ذلك ، وكان يفرط في إظهار البشتر ، ويجعل البشر وقاية دون ماله . قال : ولم نعرف عطته ، ولم يعرفها أخوه .

فلما كان في الجمعة الأخرى ، دعا أيضا أخوه بطبق رطب ، فبينما نحن نأكل إذ خرج من الدار ولم يسلم ولم يقف ، فأنكرنا ذلك ولم ندر ما قصته . فلما لن كان في الجمعة الثالثة ورأى مثل ذلك كتب إلى أخيه : " يا أخي كانت الشركة بيني وبينك حين لم يكثر الولد ، ومع الكثرة يقع الاختلاف . ولست آمن أن يخرج ولدي وولدتك إلى مكروه . وها هنا أموال باسمي ولك شطرها ، وأموال باسمك ولي شطرها ، وصامت في منزلي وصامت في منزلك (١) ، ولا نعرف فضل بعض ذلك على بعض . وإن طرقتنا أمر الله ما ركنت الحرب بين هؤلاء الفتية ، وطال الصخب بين هؤلاء النسوة . فالرأي أن نتقدم اليوم فيما يصم عنهم هذا السبب " .

فلما قرأ أخوه كتابه تعانقه ذلك وهاله . وقلب الرأي ظهرا لبطن ، فلم يزد التقلب إلا جهلا . فجمع ولده وغلظ عليهم ، وقال : " صبي أن يكون أحد منكم قد أخطأ ولو بكلمة واحدة ، أو يكون هذا الهلاك من جرائر النساء " . فلما عرف براءة ساحة القوم ، تمشى إليه حلقيا رجلا قتال : " ما يدعوك إلى القسمة والتبيز ؟ ادع صلحاء أهل المسجد الساعة ، حتى تشهدهم بأنني وكل لك في هذه الضياع . وحول كل شيء في منزلي إلى منزلك ! وجرب ذلك مني الساعة فإن وجدتني أروغ وأعتل فدونك (٢) .

(١) الصلوات من المال : الذهب والفضة .

(٢) أي إن رأيتني أعيد من القبول لك عما أمك ، أو تكلف المال الرجوع عن ذلك ، فدونك ما تريد : أي فاشرع فيما عزم عليه من القسمة ، وتخصيص كل منا بنصيبه .

فحاجتي الآن أن تخبرني بفتي " . قال : " ما لك من ذنب ، وما من القسمة بُذِّ ! " .
فأقام عنده يناشده إلى نصف النهار ، ثم أقام يومه ذلك إلى نصف الليل ، يناشده ويطلب
إليه .

فلما طال عليه الأمر ، وبلغ منه الجهد قال له : " حدثني عن وضعك لطبق الرطب
وبسطك الحصر في السكك ، وإحضارك الماء البارد ، وجمعك الناس على بابي في كل
جمعة ، كأنك ظننت أنا كنا عن هذه المكرمة غُميا . إنك إن أطعمتهم اليوم البرني
أطعمتهم غدا السكر ، وبعد غد الهلبثا (١) . ثم يصير ذلك بعد أيام الجمع في سائر أيام
الأسبوع ، ثم يتحول الرطب إلى الغذاء ، ثم يؤدي الغذاء إلى العشاء . ثم تصير إلى
الكساء ثم الأجداء ثم الحملان ثم اصطناع الصنّاع . والله إني لأرثي لبيوت الأموال
ولخراج المملكة من هذا ! ! فكيف بمال تلجر جمعه من الحبات والقراريط والدوايق
والأرباع والأنصاف ؟ قال : جعلت لذلك . تريد ألا أكل رطبة أبدا فضلا عن غير
ذلك ؟ وأخرى فلا والله لا كلمتهم أبدا . قال : إياك أن تخطيء مرتين : مرة في
إطعامهم فوك ، ومرة في اكتساب عدوتهم . أخرج من هذا الأمر على حساب ما دخلت
فيه . وتسلم تسلم " (٢) .

ثالثا: من طرائف بخلاء الحرص والجمع :

= قصة الكندي مع سكان دله .

كان الكندي لا يزال يقول للسكن ، وربما قال للجار :

" إن في الدار امرأة بها حمل ، والوَحْمَى ربما أسقطت من ريح القنثر الطيبة ، فإذا

(١) قبرني والسكر والهلبثا : أنواع من الرطب أو قتمر كانت مشهورة بكمياتها تلك عندهم .

(٢) القبله/ ١٢٢ وما بعدها . ومعنى : تسلم تسلم : استمع نصيحتي ففهم وتذم من سوء العاقبة .

طبختم فردوا شهوتها ولو بخرقة أو لفة ، فإن النفس يردّها اليسير . فإن لم تعمل ذلك بعد إعلامي إليك فكفرتك إن أسقطت عرّة : عبد أو أمة ، قرمت ذلك نفسك أم لبيت قال : فكان ربما يولني إلى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام . وكان أكثرهم يظن ويتغافل . وكان الكندي يقول لمياله : أقيم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع ! إنما لكل بيت منهم لون ولحد وعندكم ألوان !!

وقال مجيد : نزلنا دار الكندي أكثر من سنة ، نروّج له الكراء ، ونقضي له الحوائج ، ونلني له بالشرط . قلت : قد فهمت ترويج الكراء ، وقضاء الحوائج ، فما معنى الوفاء بالشرط ؟ قال : في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، ويعمر اللشاة ، ونشوار الطوفة (١) ، وألا يلقوا عظما ، ولا يخرجوا كساحة . وأن يكون له نوى التمر ، وقشور الرمان ، والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته . وكان في ذلك يتنزل عليهم ، فكانوا لطوبه وإفرط بظه وحسن حديثه يحتملون ذلك .

قال مجيد : هيئنا لنا كذلك إذ قدم ابن عمّ لي ومعه ابن له ، وإذا رقعة منه قد جامعتي : " إن كان مقام هذين القامعين لولة أو لولتين احتملنا ذلك . وإن كان إطماع السكان في اللولة الواحدة يجرّ طينا الطمع في الليلي الكثيرة " . فكتبت إليه : " ليس مقامهما حدنا إلا شهرا أو نحوه " . فكتب إلي : " إن دارك بثلاثين درهما وأنتم ستة ، لكل رأس خمسة . فإذا قد زدت رجلين ، فلا بد من زيادة خمستين . فالأدرك عليك من يومك هذا بأربعين " . فكتبت إليه : " وما يضرك من مقامهما ، وتقل أبدأتهما على الأرض التي تحمل للجبال ، وتقل مؤنتها على دونك ؟! فاكذب إليّ بعذرك لأعرفه " . ولم أدر أي أهماج منه على ما هجمت ، وأني ألق منه فيما وقعت ، فكتب إلي :

(١) نشوار الطوفة : ما تبقى الدابة من الحطب .

" لخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة ، وهي قائمة معروفة . من ذلك : سرعة امتلاء البالوعة ، وما في تنقيتها من شدة المونة . ومن ذلك أن الأكلام إذا كثرت ، كثرت المشي على ظهور المسطوح المطبنة ، وعلى أرض البيوت المخصصة ، والصعود على الدرج الكثيرة ؛ فينقشر لك المطين ، وينقح الجص ، وينكسر الحطب . مع انثناء الأجذاع لكثرة الوطء ، وتنكسرها لقرط القتل . وإذا كثرت الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقبال وجذب الأقال تهشمت الأبواب ، وتقلعت الرزات ، وإذا كثرت الصبيان وتضاعف البوش نزعت مسامير الأبواب (١) ، وكلفت كل ضربة ، ونزعت كل رزة ، وكسرت كل جوزة ، وحفر فيها آبار الددن ، وحشموا بلاطها بالمذلي (٢) ، هذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد وخشب الرفوف .

وإذا كثرت العيال والزوار والضيفان والتدماة لحتيج من صب الماء وتغلا الحبيبة القاطرة ، والجرار الراشحة (٣) ، إلى أضمار ما كانوا عليه . فكم من حائط قد تأكل أسفله وتناثر أعلاه ، واستخى أساسه ، وتداهى بنايله ، من قطر حب ورشح جرة ، ومن فضل ماء البئر ، ومن سوء التكبير . وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الخبز والطبخ ومن الوقود والتسخين . والنار لا تبقى ولا تذر . وإنما الدور حطب لها .. فكم من حريق قد أتى على أصل الخلة . فكلفت أهلها أظط النفقة . وربما كان ذلك عند غاية المسرة ، وشدة الحال . وربما تمدت تلك الجنابة إلى دور الجيران ، وإلى مجاوزة الأبدان والأموال . فلو ترك للناس حينئذ رب الدار وقدر بليته ومقدار مصيبتة لكان

(١) لبوش [يفتح وسكون ويضم لهاء] : الجماعة والعيال . وقيل الجماعة المضططين .

(٢) الجوزة : يقصد بها شجرة الجوز ، وكانت ترعى لذلك المهد الأسفل في أودية الدور . والددن : الطور والحطب . وآبار الددن يقصد بها الحفر التي يمتعا الصغار ، وسامها آبارا على المجاز . والمذلي : العسي ثلاث التي يلعب بها الصبيان . (٣) الحبيبة : جمع حب [يضم لحاء] وهو الخلبة (الزير) ويجمع أيضا على حباب .

عسى ذلك أن يكون محتملا . ولكنهم يتشاعمون به ، ولا يزالون يستغلون ذكره ، ويكثر من لائمته وتحقيره .

وبعد أن يفحص الكندي في بيان مخاطر سوء تدبير السكان مع الدور التي يمكنها أن يقول :

ويمكنها الساكن وقد نظفناها ، لتحسن في عين الممتاجر ، ويرغب فيها الناظر فإذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابا ، لا تصلحه إلا النفقة الموجهة ، ثم لا يدفع مئرا إلا سرقة ، ولا سلما إلا حمله ، ولا نقضا إلا أخذة ، ويدع دق الثوب والدق في الهاون والملاحز في أرض الدار ويدق على الأجزاء والحواضن والرواشن (٢) ، وإن كانت الدار مرممة وبالأجر مفروشة ، وقد كان صاحبها جعل في ناحية منها صغيرة ليكون الدق عليها ، لتكون واقية لها دونها دعائم التهلون والقسوة ، والفش والقسوة إلى أن يدقوا حيث جلسوا ، وألا يظنوا بما أقصدوا .

لم يحم قط لذلك أرشا (٣) ولا استحل صاحب الدار ، ولا استغفر قلبه منه في السر . ثم يستكثر من نفسه في السنة إخراج عشرة دراهم ، ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار في الشهر . لينكر ما يصير إلينا مع قلبه ولا ينكر ما يصير إليه مع كثرته ؟

(١) يدافع بالكراه : يماطل في أدائه .
 (٢) الأجزاء : جمع جذع ، ما يحمل المسك ،
 والحواضن : دعامات الأسقف التي تحمل الجذوع . والرواشن : الرفوف .
 (٣) الأرض : ما يؤدي عوضا عن جنسية أربابها .

ويقول في موضع آخر من جوابه :

" ثم إن كانت الخلة صحيحا نفع أكثرها مقطعة ، وإن كانت أصليا وأرباعا دلعها قرأصة مفتقة . ثم لا يدع مزلقا ولا مكحلا ولا زلقا ولا تيلرا بهرجا إلا دسه فيه ودلسه عليه (١) ، واحتال بكل حيلة وتكفى له بكل مبيب . فلن ردوا عليه بعد ذلك شيئا حلف بالفموس أنه ليس من دراهمه ولا من ماله ولا رأه قط ولا كان في ملكه "

ثم يقول له في نهاية الرسالة :

" ... فهذه الخصال المضمومة كلها فيكم ، وكلها حجة عليكم ، وكلها داعية إلى تهمتكم وأخذ الحذر منكم .. ، وقد أريدكم أن تحكم التازلين بحكم المقيمين ، وأن كل زيادة فلها نصيب من الخلة . ولو تفاطلت لك يا أبا البصرة عن زيادة رجلين لم أبعده . - على قدر ما رأيت منك - أن تلزمني ذلك يوما يتبين ، حتى يصير كراء الولحد ككراء الألف ، وتصير الإقامة كالظن ، والتفريغ كالشغل "١١ .

ومكنا طوف بنا الجمع في حكايته موقف الكندي مع سالكي بيته إلى ألوان من المتعة ، وصنوف من الطرائف ، التي بنيت على حوار حي ، يجعلنا لعاش للموقف وكأنها تحدث أمام أعيننا ، بما يحيط بها من حول ، وما يمارسه أبطالها من كيد ، وما يتراشقون به من حجج ، وما يعبر به كل منهم عن وجهته ، ويدفع به عن مسئله . ومحاورة الكندي لسالكي منزله طويلة مشوقة ، ولكننا أثرنا الاختصار على نهج منها حتى لا نخرج عن سياق الاختصار الذي رسمناه لأنفسنا في هذا الكتاب .



(١) المزلق : الدرهم المطلي بالزئبق لتصويه على محله الرديء . والمكحل : ما وضع عليه شيء من السواد لإخفاء زيفه . والبهرج : لأذهب الرديء .

الاختيلو الثالث

من عيون الشعر العربي القديم

للجميح الأسدي يعاتب زوجته ويترضاها :

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| مجنونة لم أخسنت أهلك خروب | أخسنت أمامة صفتا ما تكلمتا |
| ضربي الجميح ومسته بتعذيب | مررت براكب ملهوز فقال لها |
| إن الرياضة لا تتصينك للشيب | ولو أصابت لقلت وهي صادقة |
| أن يخطي اليوم عن ضربك وتأديب | يأني الفكساء ويأني أن شيوخكم |
| جركاء تمنع عيلا غير مقروب | أما إذا خرفت حرابي فمجرية |
| تظن تزيه من خشية الذيب | وإن يكن حادث يغمي فذو علق |
| فإن أهلي الأولى حلوا يملحوب | فإن يكن أهلها حلوا على قضة |
| وكل عام عليها عام تجنوب | لما رأت إلي قلت حلوتها |
| والحق ميرمة راع غير مغلوب | أبقى الحوادث منها وهي تنبها |
| بين الأبارق من مكران هالوب | كلن راعينا ونحو بها حمرا |
| فينا وتنتظري كربي وتغريبي | فإن تغري بنا عتقا وتغفني |
| في سحيل من موكب الضلن منجوب | فلقني لعلك أن تخطي وتختلي |

المعنى العام للكليات :

عاد الجميع من عمله ذات مساء ، فوجد زوجته " أبلême " غاضبة صامتة ، وحاول أن يفتح معها حديثاً أو يدير حواراً ولكنها ظلمت على صمتها وتجاهلها إياه ، فسرت في نفسه اللوموس ، وجعل يسأل نفسه عن سبب غضبها وتغورها ، أصابها من جنون ، أم أوجع أحد صدرها عليه ، وظل يستعرض الاحتمالات قتلاً لنفسه : " لا بد أن بعض قرابتها قد قابلها في غيبته وملأ قلبها ضغناً عليه ، موسياً إياها بلن تذكى للجميع هذا صنوف العذاب ، وتكف عن حوائه ... "

ثم يستعد الجميع شجاعة قلبه ، وكبرياء نفسه ، فيملن ثورته على ما تحبكه له تلك الزوجة الغريزة ، ويسخر من تصورهما أنها تستطيع أن تقال من شخصه ، أو ترغمه على ما تريد أو يريد له الكائنون ، ويستطرد في حكاية خواطره المهتاجة حاكياً تحليله لمواقف زوجته وخيبة رجالها فيقول :

لو أن تلك المرأة تتصف بالمثل وكقول من بعد للنظر لأدركت أنها لن تبلغ من أمري ما تريد ، وإن تحقق ما تتمنى ؛ لأن من كان مثلها في نقصها وهوان أمرها لن يرغم شيئاً مجرباً مثل الجميع ، ولو فُذرت ذلك لكان عليها أن توضح لمن يستعديها على زوجها أن مثله لا يراض ولا يذل ، بعد أن حنكتك للتجارب ، وطلب الدهر لشطره .

ثم يرسم الشاعر صورة بالغة الفنية في القرابة على زوجته " أبلême " والتهوين من شأنها فيشبهها في حال غضبها عليه ورغبتها في تكرير صفوه بلأنى الأسد " اللبوة " للفرسة التي تحمي غيلاً فيه سقار لها ، فلا يجترئه أحد على الاقتراب منه ، وفي مقابل ذلك التشبيه تشبيه آخر لها في حال ضغنها وخوفها من أمر مخوف بحال الصبي الصغير الذي إن سمع صوت القنب أو أخير بقرابه فزع وارتعدت فرائصه وزاد صراخه واضطرابه حتى لا يجد من يهديه من روعه بدا من زجره أو ضربه لوثبت ويكف عن

الصياح، وهما تشبهان بارغان استطاع الجميع باصطناعهما تصوير طيبة زوجته النفسية وسلوكها الجيِّب ؟ .

ثم يتابع الشاعر في قصيدته الواقعية المصورة للمشاعر والخواطر التي تتولد على نفس الرجل عندما يكون مغاضبا لزوجته - الحيلة على أمانة والحط من غلواتها ، في محاولة منه للتنفوس عن غيظه والتطاول على كبريائه فيقول لها :

علام تتكبرين ؟ وبأي شيء تفاخرين وتتمخين ؟؟ إن أهلي ليسوا أكل شأنا من أهلك ، ولا موطنهم بأدنى منزلة من موطنكم . فعلام التكبر ؟ ولم القملي ؟ .

ثم يعود بنا الجميح إلى أساس الخلاف ويواعثه ، فيذكر أن "أمانة" تكثرت له لما قلَّ ماله ، وساءت حاله ، وتناقصت ثروته ، وإذا كانت أموال العرب وثروتهم إنما تقدر بما يملكون من إبل وغنم فقد جعل الشاعر قلة حلوبة إبله نايلا على ذلك ، ثم بين في هذا السياق أن اختلال حاله وقلة أمواله لم ينتج عن سفه أو قعود عن المعى والكسب ، ولكنه نتج عن كثرة الأعباء والمسئوليات ، وأنه رجل كريم جواد اشتهر بذلك في قومه وعشيرته ، فكان محط آمال المحتاجين ، وملاذ المنكوبين ، فلم يضع المال إذا في عبث أو باطل ، بل أنفق في وجوهه ، ولأيت به الحقوق ، وبذل في الولجبات ، فهو أحرى أن يكون مدعاة للنقاء عليه وليس للوم وللتعنيف .

وهو في أثناء حديثه عن قلة ماله يدفعه بقصافه وصراحته وشجاعته في تقرير الواقع حتى لو كان في غير صالحه أن يعترف بضالة إبله وهزالها وهولن شأنها .

وفي ختام القصيدة يُمنى الجميح لزوجته الأماني ، ويدعوها إلى أن تصبر على ضيق ذات يده حتى يتيسر حاله وينمو ماله ، ويستعيد غناه ، عفتئذ سترضى منيعة وتساعد بجهده وتهنأ بالعيش الرغد مسة .

تحليل وتعليق :

(١) تخلت القصيدة عن المقدمات الدخيلة (طالية كانت أم غزلية) إذ لفت الشاعر هنا إلى موضوعه دون مقدمات ، وهذا يدلنا على أن الشعر العربي القديم لم يلتزم فيه لائقه المقدمات للتقليدية إلا في القصائد الحقلية التي يزعم بُشادها في المحافل وأسام حشد من السامعين ، أما الشعر الشخصي الذي يصور حوادث فردية أو تجارب خاصة قد أغفل لائقه في الأعم الغلب تلك المقدمات .

(٢) تعد القصيدة نيلًا على حيوية شعر القديم ومعالجته لمشكلات الحياة وتصويره لها دون تزيد أو مبالغة ، وهي صادرة من تجربة حية لفهضة لا تكلف فيها ولا تصنع ، ثم هي تصور شعور الزوج الذي تعالده زوجته وتتصد إغضابه وتغص عليه عيشه ، ويبدأ الخلاف في إفساد أولسر المودة بينهما ، كما تصور التصاوج الماطفي بين التوود والغضب ، بين ثورة الزوج لكرامته المعكى عليها والفرجة في استرضاء زوجته والإبقاء على ارتباطه بها . كل ذلك يتبدى لنا من القصيدة على وجازتها واكتفاء الشاعر بالمصاة لدالة ، والصورة المحبرة .

(٣) عرض الشاعر تجربته على صورة الحكاية ، فأخذ الأحداث من قمتها ونهلاتها ثم عاد بالسامع والقارئ إلى بداياتها وأسابيح الأولى ، فبطها أكثر تشويقًا ، وأبمى على إثارة الاهتمام لمعرفة النتيجة والحواف .

(٤) لغة الشاعر جزلة دقيقة ، وضعت فيها العبارات في مواضعها فأحدثت سدى معبرا ، وإن لمس القارئ منا في بعض كلماتها غربة فهي غربة نسبية لبعد العهد بيننا وبين عصر الشاعر وبيئته .

ومن شواهد الدقة في اختيار الجارات يثار الشاعر العمل المضارع الدال على الاستمرار في قوله في البيت الأول : " ما تكلمنا " الذي يشير بتعدد المحاولات التي

بذلها الجميح ليسترضي زوجته ويحملها على التحدث معه ومصارحته بجلية الأمر ولكن محاولاته تلك لم تثمر شيئا فكان التعبير " .. ما تكلمنا " لبلغ وألغ في هذا السياق .

ومنها كذلك استخدام صيغة التضعيف التي تشر بالشدة والقوة هي قوله في البيت الثاني : " .. ضرّي الجميح وكذلك معنيّه بتعذيب فالقعلان كلاهما يفيدان شدة الضرّ وشدة المعن . وهذا الملحظ ينطبق على الفعل " .. تخفضني " في البيت الحادي عشر والفعل " .. تحنّلي " في البيت الثاني عشر ؛ فهما يدلان على شدة العلاج الذي يرمز إلى المطالبة بالمسير في الفعل " تخفضني " وكثرة المحلوب في الفعل " تحنّلي " كما توحى كلمة " سحبل " في البيت الأخير بحجم الحجم والاضغامة .

(٥) صور القصيدة مستوحاة من البيئة العربية في العصر الجاهلي ومعالها ودلالاتها متوائمة مع قيم تلك البيئة ومثالياتها ، وفي ذلك دليل على أن الشعر الجاهلي صور حياة قائله الاجتماعية والأخلاقية ، كما صور عاداتهم وأعرافهم وما اضطربت به حياتهم .

(٦) في القصيدة من صور التعبير المؤثر ألوان عديدة منها : اللهجة الساخرة التي علق بها الشاعر على سلوك زوجته ومحاولاتها تطويعه لما تريد ويريد أهلها ، كما تكثرت فيها التسميات الكنتية من مثل قوله : يلى الذكاء ويلى أن شيخكم ... ، ومنها : تصوير زوجته في حال الثورة والغضب بالليونة ذات الجراء ، وفي حال القزع والخوف بالصبي الخائف المذعور .. وهو من التشبيه البليغ ، ومنها صورة ليله بعد أن ساء حالها وبدا هزالها وضعفها .

(٧) تدل القصيدة على صراحة العربي ووضوحه وشجاعته في الاعتراف بالحق حتى ولو كان فيه ما يمس شخصه ؛ فلم ينكر الشاعر قهره وضيق ذل يده .. وهو لب خلاقه مع زوجته - ولم يمار فيه ، بل اعترف به وعال له ، ولجّج لموقفه بأنه لم يبدد ماله في أمور تشينه ، أو تنقص من كره ، بل أنقذه في وجود المعروف التي كان العربي يحتر بها مثل مواسة المحتاجين ، أو التزم بالواجبات والحقوق التي تعاهد العرب على الالتزام بها لعشائهم ومواليهم .

تلبية الشفري :

ألا لم عمرو لجمعت فاستقلو وما ودعت جبرتها إذ تركت
 وقد سبقتنا لم عمرو بأمرها وكلفت بأعناق المطي لظننت
 بعيني ما أمست فبكت فأصبحت فقضت أمورا فاستقلت هولت
 لقد أعجبني لا منوطاً قباؤها إذا ما مشيت ولا بذات تلفتت
 تبيت بغير نوم تهدي غيوتها لجاراتها إذا الهدية تلتت
 كل لها في الأرض نسياً تفضت على أنها وإن تكلمت تبتت
 أميمة لا يخزي نثاماً حليلها إذا ذكر النسل عفت وجلت
 إذا هو لمسى أب قرء عينه ماب المسعد لم يملأ ابن ظلت
 فكت وجلت واستكرت وأكملت فلو جن إنسان من الحسن جلت
 وباضحية حشر القسي بعثتها ومن يفر يفتن مرة ومضت
 خرجنا من الولدي الذي بين مشغل

وبين الجنا هيهات أنشأت من ريتي
 وأم عيال قد شبهت تقوتهم إذا لمحتهم أوتخت وألفت
 تخلف علينا الميل إن هي أكثرت

ونحن جواسع أي آل تالسم
 مصفكة لا يقصر السر دونها ولا ترحى البيت إن لم ترمو
 جزينا سلامان بين مخرج قرضها بما كتمت لحيهم ولزمت
 وهنئة بي قوم وما إن منلتهم

وأصبحت في قوم وليسوا بمن يبي
 إذا ما فكتني ميتي لم ألبها ولم تنر خالتي الثورع وعمي

ألا لا تُطْعَمِي بِنَ تَشْكُوتُ خُلَّتِي شَفَقَتِي بِأَعْلَى ذِي الْبَرِّيَّةَيْنِ غَدَوَتِي
وَيْتِي لَطَوْنَ بِنَ أُرِيحَتَا حَلَاوَتِي وَمُرَّ إِذَا نَفْسُ الْأَبِيِّ احْتَسَمَرَتْ
لِبِي لِمَا يَأْتِي سَرِيعَ مَبَاعَتِي إِلَى كُلِّ نَفْسٍ تَنْتَفِي فِي مَسَرَّتِي
وَلَوْ لَمْ أَرَبْ فِي أَهْلِ بَيْتِي قَاعِدًا
لَتَنَفَّتِي إِذَا بَيْنَ الْعَمُودَيْنِ حُمَّتِي

تعريف بالشاعر :

الشُّنْفَرِيُّ : شاعر جاهلي قحطاني ، ومعنى الشنفرى : عظيم لشئفة . أسير الشنفرى وهو صغير لدى بني شبلبة بن فهم ، فنشأ فهم وظل عندهم حتى أدوه بأسير من بني سلامان بن مفرج ، فمات عندهم وهو لا يحلم من أمر نفسه شيئا إلى أن كبر وصار شابا قويا معتزا بنفسه ، ونزعت لهذة الرجل الذي نشأ في بيته وهو يظنها أخته ، فلما طلب منها أن تصب الماء على رأسه أتكرت منه ذلك ولطمته ، فذهب مغاضبا إلى الرجل الذي نشأ في حجره وكان يعد له أباء ، وقال له : أخبرني من أنا . فأخبره بقصته ونسبه الحقيقي ، فأكسب أن يقتل من بني سلامان مائة رجل جزاء استعبادهم له ، ثم رُحل عنهم ونزل بقوم من خصومهم ، وجعل يخبر عليهم حتى قتل منهم رجالا كثيرين .

ويعد الشنفرى وتلمذ شرا وسليك بن السلكة وعمرو بن برق وعروة بن اللورد ... من الصعاليك الذين اشتهروا بالقتل والتلصص ، وكان لديهم الإغارة على الأغنياء والمومنين واستياق أموالهم ، انتقاما للضعفاء والمحرومين الذين كان هؤلاء الصعاليك ينفقون عليهم مما يسلبون من أموال الأغنياء . وكان جُلُّ غاراتهم على لرجلهم ، واشتهروا بسرعة العدو وقوة الجلد والشجاعة الففقة وربانة الجاش . ومعظم من ذكرنا

من الصعاليك لهم شر معير يصور طبائع وخواطر نفوسهم وأحداث حياتهم .
اللغة والمعاني :

- ١- ألا أم عمرو أجمعت لاستقلت وما ودعت جبرتها إذ تولت
٢- وقد سبقنا أم عمرو بأمرها وكنت بأعناق المطي أظلت
٣- بعيني ما أمت فهاقت فأصبحت
فقضت أمورا لاستقلت فولت

اللغة :

أجمعت : عزمت وقررت . استقلت : سارت .

المعنى :

لقد أجمعت أم عمرو على الرحيل ، وفاجأتنا بآئين دون أن تدع جبرتها وأحبائها ،
وقد استبدت بأمر الرحيل ، ولم يعرف أحداها عن عزمها شيئا إلا وقت أن طلبتهم
رواحلها ، وقد فُجئنا بذلك ، وكان مما زاد حيرتنا وأثار حزنا أن أمر رحيلها حدث على
مرأى منا دون أن نملك من تغييره شيئا ! .

٤- لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها إذا مشت ولا بذات تلفت

٥- تبيت بعيد لآلوم تهدي خبوقها لجلولتها إذا الهدية قلت

٦- كان لها في الأرض نسيا قصه على أمها وإن تكلمه تبكت

اللغة :

الخبوق : ما يشرب مصاة . نسيا : شيئا منقودا . أمها : قصدها ووجهتها .

تأملت : تنقطع في كلامها ولا تطيله .

المعنى :

لقد أعجبتني أم عمرو في تسورها وحياتها ، فهي تلزم سميت المتصونات من النساء ، فلا يسقط قناعها كثيرا شأن المستهترات اللاتي يرغبن في إفت الأنظار إليهن ، ولا تكلف إذا مشيت ، ويحمد جبراتها عشرتها ؛ إذ تمنعهم وتسد خللتهم ولا تففل عن ذلك بل تداوم عليه في هداة الليل حتى لا تجرح شعورهن ، وهي من فرط حيائها وخفرها تنظر إلى موضع قدمها في سورها كمن تبحث عن شيء فقدته ؛ فلا تتحول عن مقصدها ولا تتحرف .

٧- أميمة لا يخزي نساها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت

٨- إذا هو أمسى أب قررة عونه مآب السعيد لم يمل أين ظلت

٩- فدفقت وجلت واسكرت ولكملت

فلو جن إنسان من الحسن جنت

للغة :

أميمة : تصغير تعظيم وتعليح ، أي أم عظيمة جديرة بمعنى الأمومة وحنانها وعطائها . نساها : سيرتها . حليلها : زوجها . أب : علا ورجع . قررة عونه : سعيد بها . دفقت : كملت محاسنها . اسكرت : طالت واعتكف قولها .

المعنى :

هي امرأة عظيمة اكتملت فيها كل صفات الزوجة المثالية التي يسكن إليها زوجها

ويستطيب عسرتها وألفتها ، ولا يبلغه عنها إلا ما يسر النفس ويهيج القواد ، ولا يصيبه بسببها ما يسوء أو يشين ، وهو مطمئن إلى مسلكتها إن غاب عنها حفلت غيبته ، وصالت عرضه ، وهي لا تخرج من بيتها إلا للضرورة ، فهي لوست ممن تغيب فيبحث عنها .
 ١ وهذه المرأة قد تمت لها مقومات جمال الروح والجسد وبلغت الغاية في ذلك ، بحيث لو أن إنسانا يصل به الكمال الجمالي إلى حد الاقتنان والجنون لكانت لميمة هي ذلك الإنسان !!

١٠- وباضعة حمر القسي بمثتها ومن يغز يتغنم مرة ويشمت

١١- خرجنا من الوادي الذي بين مشعل

وبين الحجا هيهات أشتات سربتي

اللغة :

الهاضعة : القطعة من الخيل ، سميت بذلك لأنها تبضع من تغير عليه أي تشتت شملهم وتطمعهم . حمر القسي : ذوا الأكراس التي لحر لونها لقدمها وكثرة ما استخدمت في المعارك حتى حال لونها . والتشميت : التخييب ، ومطاه هنا نفي الشملة عنه إذا أخفق في الغزو . هيهات : بُعْد . السرية : رفاق الغزو ، ومعنى العبارة : ما أبعد ما رميت بأصحابي .

المعنى :

كثيرا ما خضت المعارك ، وأغرقت على الخصوم في جماعة من الفرسان لهم قسي حمر ، وتعرضت معهم للأخطار شئ من يتلمس ويحمل روحه على قتله ، فغنم مرة ، ويخيب مسعاه مرة أخرى ، وكثيرا ما كلفت حملاتي وإغراقي في أماكن بعيدة ، لا يبلغها

إلا من شجع قلبه ، واستهان بالأخطار مني .

١٢- وأم عيال قد شهدت تقوتهم إذا أطعمتهم لوتحت وأقلت

١٣- تخاف علونا العيل إن هي أكرت

ونحن جيعاء أي أن تألت

١٤- مصعلكة لا يقصر السر دونها ولا ترتجى للبيت إن لم تبيت

اللغة :

أم عيال : رمز بها الشاعر " لتأبط شرا " لأحد مشاهير الصعلوك ، وقد كان يتولى أمر طعامهم في الغزو . تقوتهم : تطعمهم من القوت . لوتحت : بخلت وشحنت ، العيل : الفقر ، والمقصود هنا : نفاق الزاد . أي أن تألت : أي سياسة ملامت ، وهو على سبيل التعجب من حسن السياسة في التحكم في زاد الغزاة حتى لا ينفد وهم في أماكن بعيدة فهلكوا جوعا . مصعلكة : صاحبة صعلوك ، والصعلوك : الفقير الباحث عن رزقه في جرة ولو بالإشارة والغصن . لا يقصر السر دونها : ليست ممن يحتجب أو يعتس به غيره .

للمعنى :

يتحدث عن خاله " تأبط شرا " الذي كان يتولى تكبير الزاد للغازين ، واستطرد في الحديث عنه بهذا التعبير الرمزي ، فهو يقوتهم في حذر ، ويقصد فيما يقتنه لهم مخالفة أن يطول سفرهم واخترابهم فهلكوا جوعا ، ويتعجب من حسن سياسته وجميل تكبيره ، وأنه من الصعلوك الذين لا يخفى أمرهم ، ولا يرتجى أن يقوم في موطنه وديار قومه إلا أن يريد ذلك .

١٥- جزينا سلمان بن مفرج قرضها

بما قدمت أيديهم وأزلت

١٦- وهنيء بي قوم وما إن هنتهم

ولصبحت في قوم ولمسوا بمنيتي

اللفظة :

سلمان بن مفرج : قبيلة نشأ فيها الشنفرى مستعبدا . قرضها : دينها ، ويعنى هنا الظلم الذي لولاه عليه ، فالتقم منهم جزاء ذلك . أزلت : أخطأت . هنيء بي قوم : فازوا بخدمتي لهم وهنا بعضهم بعضا بذلك . هنتهم : أقدتهم وحقت آمالهم . منيتي : منشئي .

المعنى :

يقتخر بأنه انتقم من القوم الذين استعبده صغيرا وأخفوا عنه أمر نمبه وقومه ، يقول : جزيت سلمان بن مفرج إسماعيلهم لي ، وقد ظنوا أنهم فازوا بي عبدا لخدمهم وأبذل لهم جهدي وخدمتي ، ولكني لما علمت ظلمهم لي رفضت ذلك وكنت وبالا عليهم .

١٧- إذا ما أكتني ميتي لم ألبها ولم تثر خالاتي الدموع وعنتي

١٨- ألا لا تمدني إن تشكيت خلقي

شفقتي بأعلى ذي البريقين عدوتي

١٩- وإني لأحلو إن فريدت خلوتي

ومر إذا نفس الأبي استمرت

٢٠- أبي لما يلبي مروع مياعتي

إلي كل نفس تلتحي في مسوتي

٢١- ولو لم أرم في أهل بيتي قاعدا

أفتني إذا بين العمودين حملي

للغة :

تعهدني : من عبادة المريض . تشكيت : مرضت . عدوتي : سرعتي في الجري .
العزوف : للراغب عن الشيء ترفعاً عنه . استمرت : كرهت . المباءة : الرجوع .
تلتهمي : تقصد وتريد .

المصنعي :

يفتخر بصفاته الشخصية التي تحققت فيه ، فهو جريء لا يهاب الموت ولا يبالي به ،
وليس ممن إذا مات ذرفت عليه العملات والدموع ؛ لأنه لا يقيم معهم ولا يعلمون
من أمره شيئاً في أكثر الأوقات ، ولأن شأنه أن لا يحزن عليه أحبته إن ألمت به إصابة في
مواجهة مع أعدائه ؛ لأنه يعتمد على قوة جلده ، وسرعة عدوه الذي يمكنه من تجنب
الأخطار ، ويفتخر كذلك بأنه طيب العشرة لمن يحسن معاملته ، وأنه عنيف قاس عذما
يحب أن ظلماً سيلحق به ، وهو أبله للضيم ، يسلم من يطمئن إلى موثقه له ، ويدخل
السرور على نفسه . ثم يقول : إن الرجولة الحق أن يدرك الإنسان أن له أجلاً لن يفوته
وإن يخطئه ، فلا معنى للخوف أو التخاذل ، فمثله لو ظل في جاثماً في قعر بيته لانتبه
مفاته بين أطواب ذلك البيت ؛ فلا ينبغي أن يجبن الإنسان أو يذل فليتما هي مودة واحدة
لا ملجأ منها ولا مهرب .

تحليل وتعليق :

(١) في الأبيات التي اخترناها من تلبية الشنفرى موضوعات ثلاث متميزة : الغزل ، ووصف الغزو ، وفخر الشاعر بنفسه .

وهو في الغزل يرسم الصورة المثلى للمرأة التي يهاوها ويطلق قلبه بها ، ووصف رحيلها المفاجيء الذي أثار خولطره ، وجعله يحس بفقدائها ، ويذكر مآثرها وصفاتها التي يندر أن تتحقق في غيرها ، فهي عفة حبيبة ، تسخر بما عندها ، ويطيب الحديث عنها ، ولا يلحق حيلها منها ما يسوء لو يكدر الصفو ، وأنها تلتزم في سيرها وخروجها من منزلها سمات الحياة والوقار والتمسك ، وقد ذكر الأصمعي أن تلك الأبيات أحسن ما قيل في فخر المرأة وعفتها في الشعر العربي .

أما حديث الغزو والفنك فقد بين فيه الشنفرى صورة رفاقه وهم يهرون على أعدائهم في عدد قليل من الخيل ، ومعهم أسلحتهم التي طالما أعملوها في نصر الأعداء ، ولهم كلوا ييمدون في غاراتهم وغزواتهم ، وينقطعون عن مواطنهم مسافات وأزمنة طويلة ، ثقة بشجاعتهم ، واعتدادا بقوتهم وقدرتهم على الفجأة من محاولات الإساءة بهم ، أو إفشال غزوهم . ثم يتحدث في هذا السياق عن خاله " تأبط شرا " بأسلوب الرمز فيصوره في تدييره لطعامهم في الغزو بألم الحبال التي تكتر وقت الضيق ، حتى لا يهلك بنوها جوعا إذا نفذ زادهم ، واقطع بهم السبيل .

وفي حديث الشنفرى عن نفسه وضح قصة استجداد بني سلامان له عندما كان صغيرا وكيف عاقبهم على ذلك عقابا مروعا ، ثم بين أنه جريح غير هياج ، لا يخشى الموت ولا يئالي به ، وأنه يسلم من يسلمه ويحادي من يسعى في مضرتة وعداوته ، وأن نهجه الذي ارتضاه لنفسه في الحياة هو التصطك والخسارة على الموسرين قساة القلوب الذين يحرقون الضعفاء ويضنون عليهم ويهدرون أدميتهم ، ومقابلة أولئك النورساء بما

يقثم هو وأصحابه من أيدي الأغنياء ، وهو يؤمن بأن منيته لن تتأخر إن هو جبن عن الغزو وجثم في بيته ، فلا معنى إذاً لأن يسلك مسلح الجبناء الحريصين على الحياة الفزعين من الفتك والمخاطرة .

(٢) تصور القصيدة جانباً من واقع الحياة ، وترسم صورة لقطاع عريض من المجتمع الجاهلي ؛ إذ نستشف منها بعض مثاليات ذلك المجتمع معقدة في أمور : منها صورة المرأة المثالية في ذهن العربي التتوق إلى معالي الصفات والخصال ، وهي المرأة المتمتزة بالحياة السخية بما عندها التي تتصف بحسن السمعة وطيب الأخوة ، وقد جاء الإسلام فأعلى من شأن تلك الصفات ، وجعلها مسلماً محموداً طالب المرأة بأن تلتزم به وتحرص عليه .

ومنها صورة الصماليك الذين كانوا يمثلون فرداً لتقلتي على الظلم الاجتماعي الذي نتج عن فقدان النظام الاجتماعي للصحيح ؛ إذ كان العرب قبل الإسلام يمينين عن المنهج الذي يعصم مجتمعهم العام من الظلم والعدوان ، فمأثوا في أسر تقاليدهم القبلية الضيقة بما كان يحيط بها من مظالم وقسوة ، واستعلاء من الأغنياء ، واستعبد للمستضعفين ، وفي قصة أسر الشنفرى وهو صغير قوى دليل على ذلك . وتطلعا تلك القصيدة على كثير من الأمور التي اعتمد عليها الصماليك في صراعهم لمقاومة للظلم فوقع عليهم ؛ إذ اعتمدوا على الخطار بالنفس ، والجراءة الفعقة ، والتمرس بأعمال القتال ، وسرعة العدو ، وتكوين للجماعات للمهاجمة ، واختيار الأماكن التي يخربون عليها وقتي تحقق ما يريدون بدقة فائقة ، والمهارة في وسائل التخفي والتفطن في الخلاص من قبضة الأعداء ، وعدم اللجوء في الأسر .. إلى غير ذلك من الحيل والأساليب الذهنية التي لشتهروا بحنقها .

ومنها أن الصماليك لم يكونوا أشراراً على الإطلاق بل كان لهم جانب إنساني وضيء ، يحبون من يسالمهم ويعطف عليهم ، ويحفظ كرامتهم وأسميتهم ، ويمادون من يحقرهم أو يهون من شأنهم .

٣) لغة الشاعر سليمة معبرة ، وصورة دالة ، وجارته منقاة ، تتصف بالوضوح وقرب التلقي ، وتكشف عن تجربة إنسانية لا تكلف فيها ولا لتفتك ، ولشاعر مالك لخاصية التعبير الواضح المؤثر ، وفي ذلك دلالة على صدق التجربة ، وصدق التعبير ، فهو لا يبالغ ، ولا يتزبد ، بل يرسم الواقع في تجرد وموضوعية ، وحسنها وتأثيرها نابع من تلك الروح ، فهو لا يخبرنا عن أمور لا حقيقة لها ، لو تهويمات من قبيل الخيال ، بل يرسم أمام أعيننا صورا واقعية ، عاشها واقفل بها ، ونقلها في شعره نقلا أميناً .

وقد بدأ البيت الأول بلادة الاستفاح " ألا " وهي تؤيد التنبؤ وتثير الاهتمام لما يأتي بعدها ، وهو أمر رحيل فتته ثم عمرو " الذي بعده خطبا جلا ، وأمرافعا آثار غواطره ، وأهاج وجدانه ، ويفوض بعد ذلك في بيان آثار رحيلها المفاجيء ، وابتعادها غير المتوقع ، ويستلرد من ذلك إلى بيان صفاتها المستحبة ، وخلالها نادرة المثال .

وبعد أن يفرغ الشنفرى الشحنة للعاطفة التي ألحت على خاطره في حديث ذكرياته مع فتاة أحلامه ، وسير روحه ... ينتقل لحديث الفروسة والشجاعة الذي يذاعب خيال أمثاله من الفتيان الشجعان ، وأهل الفروسية والخطار بالروح في سبيل المبدأ ، يرسم صورة محبة لنضال رفاقه الصغار ، وما أمثروا به من شجاعة وجلد ، ثم يسجل في ذلك السياق قصته مع بني سلامان ، لما تدخل عليه من إباء الضيم ، وانتقام ممن أهانه وأزرى به ، حتى وهو في عهد الطفولة البكرة التي لا يملك لنفسه من راحتها شيئا ، ولكنه انتقم لنفسه ، وكان بمقدوره أن يعتز عنها لو شاء ، بيد أن نفسه الأبية ، وإحساسه بشخصه دفعاه إلى عدم الرضا عن ذلك ، ومعاقبة القوم على جريمتهم بحق ، إذ لا يقدر على ذلك سواء .

وفي القطعة كلها يعرض علينا الشاعر معقبيه في بيان معبر ، وأداء فلق ، يستوي في ذلك تصويره وتقريره ، وحكمته .

المتنبى يصف حاله بمصر :

ملؤنكمما نجلُّ عن الكلام
 ووقع فضله فوق الكلام
 ذراني والفلاة بلا دليل
 ووجهي والهجير بلا لثم
 فبلى استريح بهذا وهذا
 وأنشد بالإنابة والمقام
 عيون رولطي إن جرت عيني
 وكلُّ نعام رازحة بغامي
 فقد أورد المياه بغير هام
 سوى عذِّي لها برق الغمام
 لئلم لمهجتي ربي وسيفي
 إذا احتاج الوحيد إلى النعام
 ولا أنمى لأهل القلِّ صوفيا
 وليس قرى سوى منح النعام
 فلما صار ذو الفاس حبا
 جزيته على لثام بابتسام
 وصرت أشك فومن أمتطيه
 ليظي أنه بعض الأنعام

يُحبُّ المعلقون على التُصالي
 وحبُّ الجاهل على الوُضام
 واقفاً من أخى لأبى وأمي
 إذا ما لَمَّ أجثة من الحرام
 لرى الأجداد تنذَّبها جميعاً
 على الأولاد أخلاق النُمام
 ولست بقاتل من كلِّ فضيل
 بل أن أعزى إلى جدِّهم
 عجبته لمن له قُدٌّ وضدٌّ
 وينبو نبوة القُضيم الكُفَّام
 ومن يجد الطريق إلى المعالي
 فلا يَنُذِرُ المعطي بلا منقام
 ولم أر في عيوب الفلاس شيئاً
 كنقص القادرين على الخُمام
 * * *

لَقَمْتُ بلرَضٍ معرَّةً فلا ورابي
 تخبُّ بي المعطي ولا أنلبي
 وملئني الفِرَاشُ وكان جنبي
 يَحُلُّ لِقَاءَهُ في كلِّ عَمام
 تلوَّنَ عِلْدِي سَقَمَ فَوادِي
 كثيرَ حاسدي مصعباً مَرَامِي

عليل الجسم مُنتنح القيلام
 شدة السكر من غير المدام
 وزاكري كان بهسا حياء
 فليس تزور إلا في الظلام
 بذلت لها المطارف والحشايا
 فحلفتها وبنت في عظامي
 يضيق الجلد عن نفسي وغنا
 فتومئذ بالوواع المتقام
 إذا ما فارقتنى غملتني
 كأننا عاكفان على حرام
 أراها وقتها من غير شوق
 مرقنة المشوق المنتهام
 ويحنق وعذما والصدق شر
 إذا ألقاك في الكرب العظيم
 لمينت الدقر عندي كل بنت
 فكيف وصلت أنت من الزحام
 جرحته مجرحاً لم يلق فيه
 مكن الجروح ولا المنهام
 . . .
 ألا ياليت شغل يدي أنعمي
 تحترق في عنان أوزم

وهل أُرغمي هَوَايَ بِرَأْسِي
مُخَلَّاةً الْمُتَقَلِّدُ بِالْفَتَامِ
فَرَّتْهُمَا شَفَقَتُ غُلُوبِ صَدْرِي
بِمَنْزِلِ أَوْ قَنَاصَةٍ لَوْ حُمَامِ
وَضَلَّاتِ خُطَّةٍ فَخَلَمْتُ مَتَاهَا
خِلَافَ الْخَمْرِ مِنْ نَحْوِ الْفَتَامِ
وَفَارَكْتُ الْحَبِيبَ بِلَا وَقَاعِ
وَوَدَّعْتُ الْبِلَادَ بِلَا سَلَامِ
يَقُولُ لِي الطَّيِّبُ أَكَلْتُ شَيْئًا
وَدَلَّكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
وَمَا فِي طَبْعِي قِي جَوَالِ
أَخَذْتُ بِجَسَمِي طُوبَى الْجَمَامِ
نَحْوُ أَنْ يُخْبِرَ فِي الْعَرَابِ
وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ فِي قَتَامِ
فَلَمْ يَكُنْ لَا يُطَالُ لَهُ فَيَرَى
وَلَا هُوَ فِي الْخَلِيقِ وَلَا الْجَمَامِ
فَلِنْ أَمْرَضَ فَمَا مَرِضَ اسْتَطْبَارِي
وَلِنْ أَلْهَمَ فَمَا حُمَ اغْتِزَابِي
وَلِنْ لَسَلَمَ فَمَا لَبَّى وَلَكِنْ
سَلِمْتُ مِنَ الْجَمَامِ إِلَى الْجَمَامِ

تعريف بالشاعر :

أبو الطيب أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبى ، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ ، ونشأ بها في أسرة فقيرة ، كان والده يعمل سقاء ، يتعش من هذا العمل الذي لا يكفل لمن يمتلئه سعة في المال ، أو نهاية في المجتمع . أولع أحمد بن الحسين منذ صباه الباكر بالعلم والمعرفة ، واشتهر بإجادة الحفظ وصفاء الذهن ، ولمس فيه والده ذلك فجهد في تعليمه وتأديبه ، ورحل والده به إلى الشام ، وتنقل في بواديها وكان ابنه في ثلثي ذلك يأخذ اللغة والفصاحة عن الأعراب للقاطنين بتلك الأصقاع ، وكثرت لغتهم ما تزال على فصاحتها وسلامتها ، فأفاد المتنبى من ذلك إما إفادة ، وبنت موهبته في قرض الشعر ، فالتف حوله الناس وزاد إعجابهم به ، وامتحن المتنبى في تلك المرحلة من عمره بتهمة الخروج على سلطان الدولة ، وادعاء النبوة ، وهما تهمتان بطلتتا ، فقبض عليه وأودع السجن ، وابث به مدة ثم استعطف وإلى حمص من قبل الإخشيديين فأطلق سراحه ، فخرج وقد التصق به لقب المتنبى مع كراهيته له وتبرُّكه منه ، فلأخذ يمدح صغار الولاة والموسرين ويذل عطاياهم ، حتى اتصل بسيف الدولة الحمداني فقربه إليه ، وصار من خلصاته الذين لا يفارقونه ، وعظم شأن أبي الطيب في بلاط سيف الدولة ، وخلد الشاعر ذكر الأمير ، وجعل سيرته وبطولاته تتناقلها الأجيال ، وتزهو بها سطور التاريخ ، لكن اعتداد أبي الطيب بنفسه ، وكثرة حاسديه والحاكدين عليه كانا سببا في وقوع الجفاء والمفاضبة بينه وبين سيف الدولة ، فاضطر المتنبى إلى مفارقة صديقه وولي نعمته مرغما ، فرحل إلى مصر واتصل بواليتها كافور ومدحه ، ولكن مقام أبي الطيب بمصر لم يكن محققا لأمله ولا مرضيا لطموحه ، فشكا سوء حاله بها في شعره ومنه القصيدة التي ندرسها في هذا الاختيار ، ثم غادر مصر هاربا من كلفور سنة ٣٥٠ هـ ، فعرج على الكوفة فيجداد ، ثم قصد عضد الدولة بن بويه في بلاد فارس فصطحه ومدح وزيره ابن العميد ، فأجزل له

للعطاء وبالغ في إكرامه ، غير أنه ما لبث أن قرر العودة للعراق ، وفي أثناء عودته لقيه
 أعراب من بني ضبة كان قد هجا رجلا منهم ذا مكفة ولس هو فلك بن أبي جهل
 فترجموا به ، وكمثروا له ، فقتلهم قتالا شديدا حتى قتل هو وابنه وعلامه سنة ٣٥٤هـ .
 ولأبي الطيب مكانة مرموقة في الشعر ، وموهبة لا نظير لها في البيان ، وهو حكيم
 الشعراء ، وفارس الكلمة الدالة والفكرة الفاتحة ، والمعنى المبتكر ، كما أنه كان صاحب
 مذهب شعري لم يجاره فيه غيره ، ولم يبلغ أحد فيه شأوه ، وشعره في أعمره الأغلب
 تصوير لنفسه وتعبير عن خواطره ورواه ، وله في تلألؤ أحوال الناس وفلسفة الحياة ما لم
 يُسمع لغيره من شعراء العربية ، مع دقة تعبير ، وروعة صياغة ، وتمكن من أدوات
 البيان ، ومساكن البلاغة اللزقية ، والجمالية التي تسير مسير الأمثال ، ثم هو في شعره
 معتد بنفسه أشد الاعتداد لا يرى له مثيلا ، ولا يعترف لأحد بفضل ، ولا لمساواة يتفوق
 ولجوع ، وكان ذلك المنزع سببا في اجتلاب عداوت كثيرة ، وضغينة ملأت قلوب
 حاسديه ، ومناقضيه .

• • •

اللغة والمعنى :

ملومكما يجلب عن الكلام
 وزكع فعليه فوق الكلام
 ذرائعي والفلاة بلا دليل
 ووجهي والهجير بلا لثام
 فلبس استقريح بهذا وهذا
 واتعجب بالإثابة والمنكلم

اللغة :

ملومكما : الشخص الذي تلومته ، ويعني نفسه ، وقد جرد صديقين يحاورهما في هذا السياق على عادة الشعراء العرب . يجلب : يعظم . الملام : اللوم والتأنيب . الكلام : يفتح الكاف : هو الكلام المعروف ، وروي بكسر الكاف : أي الجراح .
 ذرائعي : أتركتني . الفلاة : الصحراء الواسعة البعيدة عن الماء . الهجير : شدة الحر .
 اللثام ما يغطي به الوجه جمالية له أو تخفيا . الإثابة : النزول والاستقرار في مكان بعد السفر .

للمعنى :

يقول لصاحبيه اللذين يلومانه على المخاطرة بنفسه وتعرض حياته للخطر - أترككم لومي وتعنيفي ؛ فلما بمقتلي ورؤيتي للأمور أسمو عن أن الأم ؛ لأنني لا أرى لأحد فضلا على في بعد النظر ، وحسن تقدير الأمور ، ثم إن اللوم يؤذيني لندقة إحصائي ، ورقة مشاعري ، فهو بالنسبة لي ليس مجرد كلام أسمعه بل إن وقعه على نفسي شديد .
 ثم يقول لصاحبيه خلواني وما نذرت نفسي له ، فقد ألفت نفسي حياة المخاطرة ومجابهة الصعاب ، وهي تجد راحتها في ذلك فتجوب الصحارى بلا دليل وتسير في الحر الشديد بلا لثام ، وتتعب إن هي جتمت وسكنت وانزوت !!

عيون رولحي إن حرت عيني
 وكلُّ بَعلٍ وقرحةٍ بعلامي
 فقد أُرِدَّ المياه بخير هلا
 سوى عذّي لها برق الخمل
 يُذمُّ لهُنَّجَتِي ربي وسيفي
 إذا احتاج الوحيدُ إلى النمل

اللفة :

للرواحل ، جمع راحلة : الناقة أو الجمل الذي يتخذ للسفر وحمل الأمتعة . حرت : تحيرت واشتبهت على الدروب والمساك . البعل صوت الإبل من التعب كله الأثين . والراحة : هي الإبل التي يصيها الإعاء من طول السفر . هلا : دليل مرشد . عذّي لها برق النمل : قالوا إن العرب الذين ألقوا حياة البادية كانوا إذا رأوا برقاً في الأفق في جهة ما جعلوا يحنون مرات البرق فإن بلغ عدداً معيناً ليقنوا أنه خلف مطراً كثيراً فلتجهوا نلموته للسقيا . يذم : يحفظ من النمل بمعنى المهد والحفظ . المهجة : لروح .

المعنى :

يواصل الشاعر حواراً مع رفيقه في سياق الفخر والتفوق عن خواطره الحزينة ، وإحسانه بالضيق من وقع حياته الذي لا يرضيه فيقول استطراداً لما ذكره عن حبه المخاطرة والقتال الصعب :

إن اشتبهت على المسالك اهتكت بحور رولحي ، وإن ضللت السبل اهتدى لباحثون
 علي بصوت ليلى ، وإن نعدت مني المياه في الصحراء اهتكت إلى أمكنها من وميض
 البرق كما يفعل الأعراب المعارفون بطبيعة البادية ، ولما في حماية ربي لأنني مؤمن
 بقضائه ، ثم في منعة من الأخطار بشجاعتي وسيفي الذي أجد استخداً له ، وأحسني به
 نفسي حتى إذا كنت وحيداً .

ولا أتعبي لأكل البخل ضيفا
وليس قرى سوى مخ النعام

للغة :

القرى : ما يقدم للضيف . مخ النعام ، قول أراد به نفي وجود الزلا كالتقاء وجود
مخ للنعام ، وري : مخ بالحاء المهمة بمعنى يرض النعام .

المعنى :

لا أقبل أن أعين نفسي بالتزول على البخل حتى لو لم أجد زادا ، أو لو اضطررت
إلى أكل يرض النعام فإني أفعل ذلك وأفضله على اللجوء إلى ضيافة البخل .

فلما صار ود الناس خيما
جزيت على ابتسام بالبتسام
وصرت أضلأ فومن أسطوقه
لجمي أنه بعض الأنسام
وحباً للعالمون على التصالي
وحباً للجاهلين على الوتسام

الغة :

الخب : السكر والخداع ، أسطوقه : أختاره . الوسام والوسامة : الحسن .

المعنى :

لما صار ود الناس غير صادق صرت أقبل كما يفعلون ، فلذا تسموا إلي تسمت لهم
وصرت أوجس شرا من مودة من لوده من الناس لجمي أنه بشر طبعه من طبيعهم ،
والعاقل هو من يتأكد من مودة من يصادقه ، ويختار محبه ، أما الجاهل فهم الذين

تقدعهم الأئمة الزائفة التي يلقاهم الناس فيها ، ويدارون بحسنها الظاهر سوء طواياهم .

وَأَنفًا مِنْ أَخِي لَأَبِي وَأُمِّي
إِذَا مَا لِسَمِ أَسَدَةٍ مِنَ الْكِرَامِ
لَرَى الْأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا جَمُوعًا
عَلَى الْأَوْلَادِ اخْتِلَاقَ النَّسَبِ
وَلَمَسْتُ بِقُلُوبٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ
بَلَنْ أَعَزَّزِي إِلَى جَدِّ مُنْصَلِمِ

الآفة :

أنف : من الآفة وهي الترفع عن الأمر غير المحبوب . أعزى : أُنْصَب .

المعنى :

يقول : إني لأخجل من أخي الشقيق إذا لم يكن في مسئلكه ومنهجه في الحياة من الكرام ، وإن الخلق للزيم قد يغلب الأصل الطيب ، فكون الأجداد كراما والأبناء والأحفاد لخامسا ، وأنا لا يكفوني أن نسب إلى أصل طوب دون أن أحرص على ما يقتضيه ذلك ، النسب من الاستزادة من كل فضل ، والسمي لإضافة مقرر أعرف أنا بها بين الناس وأزداد بالتحلي بها فضلا .

عَجِبْتُ لِمَنْ لَه قَدْ وَحْدُ
وَيَنْبُو نَبْوَةُ الْقَضِيمِ الْكَوَالِمِ
وَمَنْ يَجِدُ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَعَالِي
فَلَا يَذَرِ الْمَطْيُ بِلَا مَنَالِمِ
وَلَمْ لَرَى فِي عَوِيهِ النَّاسِ شَيْئًا
كَتَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَالِمِ

اللغة :

لقد : القامة ، وعنى هنا هيئة الرجال واكتمال الجسم والبنية . والحد : الجانب للقاطع من السيف لو ما أشبهه . ينبو : يكل ويضعف ، يقال : نبا السيف عن الضريبة بمعنى لم يكن قاطعاً . والقضم : السيف المقل أي الذي تكلم حده . والكهام : السيف الضعيف الذي لا يقطع ولا غناء فيه .

المعنى :

يقول الشاعر إنه ليتعجب أشد العجب من الرجل تكون هيئته مكتملة وقدراته والفره ثم يتصف بالعجز والفور ، ويقعد عن مهمات الأمور ، فلا عذر لمن وجد للسبيل منفسحة أمامه لاكتساب المحامد ، وتحقيق الأمجاد ولم يتعب نفسه ويجهد جهده لبلوغ تلك الغاية ، وليس هناك من عيب ونقص أفتح ولا أبعد عن المروعة من نقص القادرين على بلوغ الكمال ثم يقعدون عنه دون عذر ولا مبرر .

أَفْنَعْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلَا وَرَاقِي

تَخْبُئُ بِي الْمَطِيُّ وَلَا أَسْلَمِي

وَمَلَّتْنِي الْفَرَّاشُ وَكَانَ جَنْبِي

يَحِلُّ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عِلَامِ

قَلِيلَ عَالِدِي سَقَمَ فَوَادِي

كَثِيرَ حَاسِدِي مَعِبَ مَرَامِي

عَلِيلُ الْجِسْمِ مُتَقَبِّحُ الْقَوَامِ

شَدِيدُ السُّكْرِ مِنْ غَيْرِ الْمُدَامِ

اللغة :

—

تخب : تسرع ، من الحبيب وهو نوع من سير الإبل فيه نشاط وإسراع . سقم : عليل
مرامي : ما لؤمته وأتوق لتحقيقه . المُدّام : الخمر .

المعنى :

يصور الشاعر شعوره بالضيق وضياح الآمال بعد بقاءه بمصر زمنا ، وفشله في بلوغ
ما كان يرجو فيقول :

إنه أقام بأرض مصر وحيدا معزولا مهملا ، لا يكاد يشعر به أحد ، مع أنه قبل ذلك
كان يشار إليه بالبنان ، إذا سار قفي حشد من الأتباع والمحبين ، حيثة نشاط دائم ، وأنس
موصول ، ولكنه في مقامه بمصر يعاني الركود والخمول ، حتى لكان فرائسه قد مل
ملازمة جسمه له ، وكره التصاقه به ، في حين أنه قبل ذلك كان لا يكاد يلم بذلك الفرائش
وكان جنبه هو الذي يمل للفرائش إذا صادفه مرة على مدلول العلم ، وهو في مقامه هذا غير
المحبوب قليل العواد ، مهموم النفس والقلب ، كثير حاسنوه والاشتتون به ، مهددة آماله ،
طيل جسمه محطم بنائه ، إذا نهض تحامل على نفسه مخالفة الترنح والسقوط كلن به
سكرا من نوع فريد ليس من خمر لحتساها بل من هم ناء به جسمه ، وضيق جثم على
فؤاده فلم يدع له سلامة العقل ولا صحة البدن .

وزاتركي كلن بهسا خفاء

فلين تزور إلا في الظلام

بنذلت لها المطارف والختايا

فحافقتها وياقت في عظامي

يضيق الجلد عن نفسي وعنّها

فتوسيعه بالتواضع السقام

اللغة :

الزائرة قصد بها هنا : الحمى التي آلمت به ، ومن شأنها أن تلقي نوبتها لولا ،
فصورها الشاعر بالزائرة الخجولة التي تكفي حبيبها لولا خشية أن يفتضح أمرها .
المطارف ، جمع مطرف : غطاء وثير مزين الأطراف . الحضايا ، جمع حشية : ما حشي
من القرائش لؤخاس أو يتنام عليه .

المصلى :

يبدأ أبو الطيب في وصف الحمى التي أصابته وهو مقيم بمصر فيكتفي عنها بالزائرة
ويجيد وصفه لها ويستطرد فيه على هذا النحو الرمزي فيذكر أنها كانت لا تزوره إلا في
الظلام ، وأنه كان يهيء لها الفرش والأغطية القوية فتتركه ذلك وتلبي إلا أن تبيت في
عظامه ، وأن مبيتها ذلك كان يلتج عنه هزال جسمه وترهل جلده بسبب توسعها له لتجد
مكانا تستقر فيه .

إِذَا مَا لَارَكُنِّي عَسَفْتَنِي

كَتَبَا عِلْكَافًا عَلَى حَرَمٍ

أَرَأَيْتَ وَكُنْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ

مُرَاقَبَةً الْمَشْهُوقِ الْمُسْتَهَامِ

وَيَحْنُقُ وَغَدَا وَالْحَصَقُ شَرٌّ

إِذَا أَلْقَاكَ فِي الْكُرْبِ الْعِظَامِ

المعنى :

وهذه الزائرة عندما يحين وقت فراقها تتركني وكئي قد اغتسلت من شدة الحرق ،
 ونوبة الحمى ، وكئي وإياها كنا لفرقا ما يوجب التعطر والاعتمال . وهذه الزائرة تأتي
 كل ليلة في موعد لا يتخلف عنه ، ولما أتوقع لقومها وأرقبه في غير شوق لذلك القدوم ،
 وأتمنى أن تحلب موعدا ، وتتقطع زيارتها ، ولكها من أسف تصدق في التزامها
 بموعدها ، وصدقها ذلك هو الشر بعينه ، وذلك من غريب المفارقات لأنه صدق يحقه
 كرب عظيم ، وشرٌ ويول !!

أبنت الدهر عندي كلُّ بنتٍ
 فكيف وصلته أنت من الزحام
 جرحته مجرّحاً لم يبق فيه
 مكان الجروح ولا السهام

اللغة :

بنت الدهر : يقصد بها الحمى التي أصابته ، وبنت الدهر : شدائده ومصائبه .

المعنى :

يقول مخاطباً الحمى ومنفصلاً عن ضيق نفسه والكرب الذي هو فيه : أيتها الحمى أنا
 لذي من هموم الحياة ومصائب الدهر ما يكفيني ، لقد أحاطت بي النصائب ، وتهمت من

حولي للكرارث ، وبقي لقي عجب من وصولك إلي ، وإلمامك بي على الرغم من كثرة ما يحيط بي من الأهوال !! لقد ألمت مصابا ليس في جسده موضع يتحمل طعنات جديدة فضلا عما به من جراحات !! .

ألا ياليتَ شمرَ يدي تُشمي
تصنركَ في عنانٍ أو زمام
ومل لومي خوائي برقصاتٍ
مُخللة الخفاود بالأنغام

اللفة :

ليت شعر يدي : أي ليت يدي تشمر وتعرف وسيلة تحقق لها ما أتمناه . والعنان ما يقاد به الفرس ، والزمَام للإبل . الرقصات : الإبل تسير في سرعة ونشاط . والمقاود : جمع مقود : ما تقاد منه الدابة . اللغام : زبد أبيض يسيل من فم للبعير .

المعنى :

بعد أن شكَا أبو الطيب ما كان يشمر به ويمشي من ويلائحه بمصر من ألم النفس ، وإلمام الحمى - بدأ يستعرض أمنياته التي يريد أن يحققها ، وحياته الأولى التي يود أن تعاد كررتها من جديد فيقول :

ليتني أعاود حياة الأسفار والحياة الحرة للخالية من القيود ، فأركب الإبل ، ولتطفي الخيل وأمضي هنا وهناك كما كنت أفعل ، ولأمارس الحياة التي أحبها ، والعيش الذي أفضله ، وأصول ولجول دون أن تقيد حركتي ، وتكبطني القيود .

فَرَيْتُمَا شَفَوْتُمَا غُلِيلَ مَنْزَرِي
 بِمَنْزَرٍ أَوْ قَنْسَلٍ أَوْ خُمْسِ
 وَضَاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَعْتُ مِنْهَا
 خِلَامَ الْخَمْرِ مِنْ نَمِجِ الْفُدامِ
 وَلَمَّا كُنْتُ الْحَبِيبَ بِلَا وَدَاعٍ
 وَوَدَّعْتُ الْبِلَادَ بِلَا سَلَامِ

اللغة :

الغليل : حرٌّ المصدر يكون من عشقٍ وغيره . الحسام : السيف القاطع . خطّة : أمر
 صعب . القدماء : قطعة من نسوج رقيق توضع على رأس وعاء الخمر تمنع نزول
 الشوائب .

المعنى :

لو حدث ما أتمناه ، وتم لي ما أريد فبني سامتريخ مما أعلاه ، ومتكون تلك
 المغامرات والأزمات التي أعرف كيف أتعلم عليها ، وأتخذ معها - هي التي
 ستريني ، وتكفل المرور على نفسي ، وتعود إلي الشعور بالرضى .

يَقُولُ لِي الطَّيِّبُ لَكُنْتُ شَيْئًا
 وَدَلَاكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
 وَمَا فِي طَبِيبِ لِي جَوَلًا
 لَمَنْزَرٍ بِجَسْمِهِ طُولُ الْجَمَلِ
 تَعَوَّدَ أَنْ يُغَيَّرَ فِي الصَّرَاحِ
 وَيَخْلُفَ مِنْ قَتَامٍ فِي قَتَامِ

فَأَمْتَبِكَا لَا يُطَالُ لَهُ فَيَرْغَى
وَلَا مُوَفِّي الْخَلِيقِ وَلَا الْأَجَامِ

للغة :

الجمام : أن يترك الفرس فلا يركب . والقتام : الغبار . والصرايا ، جمع سرية : وهي جماعة المقاتلين التي تسير إلى العدو خفية .

المعنى :

يربط المتنبى بين ما اقتله حال مقامه في مصر من ضيق النفس والاحباط وبين إصابته بالحمى فيقول : لقد ظن الطبيب الذي جاء به ليعالج جسمي أنني مسموم بسبب عادي كما يكون عند سواد الناس ، مرتبط بتناول نوع من الطعام أو الشراب ، والطبيب معذور في تقديره واستنتاجه ، لأن ما أصابني ليس مما درسه وعلمه ، ومصابي الذي أعاني بسببه هو ألم النفس وضيق الصدر وتحطم الآمال ، وذلك كله لا ريب يؤثر على كيان المرء كله ، فالحمى التي أصبت بها أعرف مسبباتها ودواعيها ، فعالي كحال الفرس الجواد الذي إن بُوعِدَ بينه وبين الكر والفر والحو والمصالاة - ضغفت قوته ، وتزهل جسمه ، وغدا غير مطبق لنزال ، ولا مؤهل للمبق في مضمار ١١ .

فَلَيْنَ امْرَضْتُ فَمَا مَرَضَ امْصِطْبَارِي
وَلَيْنَ أَحْمَمْتُ فَمَا حُمَ إِعْقَرَلِي
وَلَيْنَ اسْتَمْتُ فَمَا أَبْقَى وَلَسَكُنْ
مَلَمْتُ مِنَ الْجَمَامِ إِلَى الْجَمَامِ

اللغة :

اصطباري : صبري ومقاومتي للصعاب . أحمر : أصاب بالحمى .

١ والحمام : الموت .

المعنى :

يختم الشاعر قصيدته كما بدأها قوي الإرادة ، صلب العزيمة ، لا يتسلسل اليأس إلى نفسه ، ولا يعرف الضعف طريقه إلى شخصه .. فيقول :

إن أصابني المرض لقد نال من جسمي ولكنه لم يزل من تصبري وجلدي وقوة إرادتي ،
 وإن أمت بي الحمى فإن عزمي لم تصب بمكروه ، وإذا سلم الجوهر فإن العرض لا
 يؤثر فيه ، وأنا لؤمن بأن للإيمان نهاية محتومة ، فلعلما بقي على قيد الحياة فهو معرض
 للصحة والمرض ، والسراء والضراء ، والإقبال والإندبار ثم تكون النهاية المحتومة ،
 وكأن الملحة الذي يتجرعه كل حي إذا حبل حنونه ، وحُسم أعضائه !!.

التحليل والتعليق :

(١) تصور القصيدة في جلاء وجدان أبي الطيب في المرحلة التي عاشها في مصر ، وتعبر عن ضيقه ومعاناته عندما أيقن من تبدد آماله ، وأحس بالحقق على ما صار إليه أمره من إهمال وتجاهل ، فهي من الشعر الذاتي الذي تبرز فيه رؤية الشاعر وخوالبه بأحداث الحياة من حوله وتأثيرها عليه ، وقد نجح المتنبي بصديق المعاناة ودقة التعبير في تصوير تلك المعاني والخطرات النفسية الدقيقة ، وأن يقنع متلقي شعره بها ، ويجعل التجربة التي عاناها وصورها في قصيدته معاشة مصداقية لدى متلقي شعره ، فصارت تنبض بروحه المكروبة ، وخوالبه المهتاجة ، وتعبر عن آماله المبهدة التي تهرث عن مخرج تلفذ به من ذلك الطوق الصفيق الذي أحاط بها ، وأوشك على أن يخنقها ويودي بها .

(٢) فرضت التجربة طابعها على تعبير الشاعر ، فهي عند التأمل تتركز في مراجعة الشاعر لواقع المهمل المشين مقارنة بماضيه الزاهر بالرقة وطو للمكالة والشهرة ولذووع الصوت ، وعند تأمل الشاعر لماضيه وحاضره تبثت له المفارقات الصارخة ، وتجسدت أمام ناظره فداحة الرزء الذي أصيب به ، ففرض ذلك على صياغته للمعاني ذلك الطابع وتلك السمة ؛ فقد أقام بأرض مصر سلكا خمللا مهملا منزويا لا تخف به المطي ، ولا يحيط به المریدون والمحبون ، ومل الفراش جنبه وكره جثومه وملازمته في حين كان جسده فيما مضى هو الذي يمل الفراش إن استلقى عليه مرة في العام !! ، ثم إن هيئته وصورته الظاهرة هيئة من عمل فيه السكر ولكنه في حقيقة الأمر سكر الهم والحزن والكمد لا سكر الخمر والنشوة والسرور !! .

وهذه السمة الدالة على المفارقة وتكثفها في القصيدة ولضحة في كثير من جوانب القصيدة ؛ حتى إن المتنبي عندما صور إمام الحمى المتكرر له لم تفارقه تلك الرغبة في

التعبير عن سوء الحظ الملازم له وتصوير تلك المفارقات المبكية ؛ فهو يعد لذلك الزلزلة
المطارف والفرش فتتركها وتبقى إلا أن تسكن في عظمه وتهد قواه !! .
(٣) من ميزات شعر المتنبي التي لا يجريه فيها نظير إرساله الأكلال الصائبة ، والحكم
السديدة ، والتكلمات الثقافية ، وقد حفظت قصيدته هنا بتلك الأقوال ، وهو في هذه القصيدة
لم يسرد ما سردا ، ولم يتحمها في موضعها بل بقي بها في سيقها مؤكدة ما يطرحه
من أفكار ، وما يصوره من خواطر ويعرضه من تأملات ، وانكسر على ثلث رؤيته
لأحداث الحياة وتقلباتها ، وعلاقت الناس وأخلاقهم ، ومن ثم تغدو مثيرة لمتأمل شعر
المتنبي بغبوض من التجارب النافعة ، والسلوك القويم الذي يرسم لأقيم الخلقية السديدة
أطرها الصحيحة ، ومن ثم تجعل الإنسان يحتر بها ويحرص عليها ، ولا يتحول عنها مهما
صانده في سبيل ذلك من مصاعب ، لو اقتضاه من تضحيات لأنه يدرك أنه على جادة
الصواب ونهج الأحرار الذين لا يتلونون ، ولا يداجون ، ولا يخشون في الحق لائمة ،
ولا يسلون من أنفسهم الذنوب مهما كانت المواقف .

ولعل من أقوى الدلائل على تلك الظاهرة في القصيدة - الأبيات :

ولا أُنمِي لأهلِ الْبُخْلِ ضيفا

وليسَ كَرَى سِوَى مَنْعِ الْفَسَامِ

فَلَمَّا صَارَ وَدَّ الْفَنَاسِ حِجَا

جَزِيَتْ عَلَى ابْتِمَامِ بِلَهْتِمَامِ

وَصَرَتْ أَشْنَاءُ فِيمَنْ أَسْتَظْفِرُ

لِيُنْمِي أَفْءُ بَعْضِ الْأَسَامِ

يُجِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَى التَّصَلِّي

وَحِبُّ الْجَامِلِينَ عَلَى التَّوَسُّلِ

وَقَفَّ مِنْ أَخِي لِأَخِي وَلَمْ يَـ

إِذَا مَا لَسَمَ لِحِدَّةِ مِنَ الْكَرَامِ

أَرَى الْأَجْدَلَ تَغْلِبُهَا جَمِيعًا
 عَلَى الْأَوَّلِ لَخَلْقِ النَّاسِ
 وَلَسْتُ بِقَاتِلٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ
 بَلْ أَعِزِّي إِلَى جَدِّ هُنَّاسِ
 عَجِبْتُ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ وَحْدَهُ
 وَيَنْبُو نُفُوسَ الْقُضَمِ الْكُهَّاسِ
 وَمَنْ يَجِدِ الطَّرِيقَ إِلَى الْعَالِي
 فَلَا يَذَرِ الْمَطْلُوبَ بِلَا مَنَامِ
 وَلَمْ أَرِ فِي حَيَاطِ النَّاسِ ضَيْبًا
 كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

وهو فيها يهبر عن خلاصة تجارب أفلاها من صلاكة بالناس ومعايشته لهم ،
 ومعارفته طبائعهم ونفائسهم ونقاط الضعف فوهم ، وقد صور تلك النقائص تصوير الكاره
 لها المتعجب من ارتياح بعض الناس لها ، وقبولها لأنفسهم على الرغم من أن شماقل
 الرجولة الحقة لن تكلفهم شيئا ، وإن يصر عليهم تعصبلها أو بلوغ غايتها .
 (٤) أكثر أبو الطيب في قصيدته التي معنا هنا من إيراد الجمل الخيرية التي تلائم معانيه ،
 وقد أكد كثيرا منها بالولن من المؤكدات ليحقق معانيه ، ويقررها في أفهام سامعيه . ومع
 ذلك لم تخل القصيدة من اصطناع الجمل الإثباتية عند مقتضياتها وفي مواضعها ، ومنها
 الأمر الذي يندد للتحدي والرغبة في المخاطرة بالنفس والقدرة على تخطي الصعاب في
 قوله :

ذُرَانِي وَالْفَلَاةَ وَوَجْهِي وَالْهَجِيرَ ...

وهو في الوقت نفسه يؤكد ما ذكره في البيت السابق من أنه ينبغي ألا يلام ، أو يقاس
 بمسلكه وفعله بمقاييس الأمخاض العاديين .

ومن تلك الأساليب أيضا : التمني في قوله :
ألا يا ليت شعر يدي ...

وقوله :

وهل لرمي هواي برقصات ...
وهو استنهام يقيد التمني .

٥) الصور في القصيدة كثيرة متنوعة برع أبو الطيب في التناطها ، ولجاد في اصطناعها لتجسد معانيه ، وتبرز أفكاره ، وتوحي بمقاصده ، كما جعلها تحمل دلالات عميقة ، وتشير إلى معان وغايات يحتاج المبحر عنها بالأسلوب العادي إلى كلام كثير وشرح طويل .

والصور في هذه القصيدة منها ما هو من قبيل الصور الجزئية التي تأتي في إطار محدود ، ومنها الصور الكبرى أو اللوحات التي تحتشد فيها الألوان والأضواء والظلال ، ومن النوعية الأولى قوله :

وملني الفرائش

إذ تجسم الفرائش في صورة إيمان اعتراه الضجر والملل .
ومنها : تصوير حاله وقد أحاطت به الهوم والأرزاء وهي أمور معنوية تستشعرها النفس وتكترب لها . بصورة ملحية محضة تجسمت فيها هذه المعنويات فأحاطت بجسمه وأزجحت من حوله ، وهو في عجب من وصول الحمى إليه على الرغم من إحاطة تلك الأرزاء به .

وفي قوله :

وهل لرمي هواي برقصات ..

تجسيم للأمانى في صورة محسة وكثافتها هدف مقام يسد إليه سهامه ليصيبه ، وسهامه التي سيصيب بها ذلك الهدف هي الإبل الفجائية التي ستبلغه ما يريد .

وفي القصيدة كذلك صور كبرى ولوحات مشوقة منها :

" ما صور به المتنبي نفسه في يدلية القصيدة في صورة الفارس الذي يقتحم الأخطار ، ويجوب الصحاري غير هائب ، لأنه يعرف كيف يتغلب على مصاعبها ، ويتجاوز أخطارها ومهلكها ، وقد حشد المتنبي لتلك الصورة مكونات جعلتها أكثر تميزاً ووضوحاً منها : لقتحام الصحراء بلا دليل ، والسير في وقت الهجير ، والاعتداء عند خفاء المسالك والدروب بعيون الرواحل ، ومعرفة أماكن المياه من دلالات البرق ومواقفه في الأفق .

" أما تصوير الحمى بالصديقة لزقزقة فهو من أبرع ما صورها به شاعر ، وقد أفاض المتنبي في تلك الصورة وموه برموزها في تلك القصيدة ، حتى ليخفى على من لا يعرف سياقها وفكرتها أن الشاعر يتحدث عن صديقة زقزقة على الحقيقة .

" وهناك أيضاً تصوير حاله في مقامه بمصر وما جلبه عليه من أضرار في نفسه وجسمه بحال الفرس لفائق القدرة على الصيق والكر والفر عندما يحال بينه وبين ممارسة مهامه فيتمسك إليه الوهن ، ويصتره للغمول فيغدو عاجزاً عما كان يحرز من سبق ويناط به من لإنجاز .

٦) إيقاع القصيدة سريع معبر ، والمحسنات الابدعية فيها متعددة وقد أتت في مواضعها لا تكلف فيها ولا اعتساف . ومنها المطابقات والمقابلات والتجنيس وحسن التقسيم ومن أمثلتها :

المجانسة الاشتقاقية بين " ملومكما " و" الملام " والجناس الناقص بين " للسلام " و" الكلام " في البيت الأول ، والمطابقة بين " الإخلاخ " و" المقام " في البيت الثالث .

وأشبه ذلك كثيرة في القصيدة لا تحفى على المتأمل .

ومن أمثلة حسن التقسيم قوله :

قليل عاتدي - سقم فولدي ... كثير حاسدي - صعب مرامي

مختارات أدبية

الأستاذ الدكتور

عبد الجواد محمد المحسن

الاختصار الرابع من القصص القرآني - قصة موسى مع الخضر -

تمهيد:

لا يمكن لتقلب وتحديث عن مجالات الجمال في كتاب الله تعالى الخالد أن يخل الحديث عن الجانب القصصي فيه، وما يحتويه من معالم الجمال في سرد الأحداث، وتصوير الشخصيات، وعرض المعالومات، وغيرها من العناصر التي تقوم عليها القصة القرآنية.

وذلك سنبين بضمن الحديث عن جمال القصة القرآنية هما:

أولاً: أن القصص القرآني يخلط حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الأدبية، عرضاً أمامها أحداثاً من التاريخ، وصفها منزلها جل شأنه بأنها من (آباء الغيب) التي ما كان يحلمها النبي ولا أحد من قومه قبل نزولها، فهي وثائق تاريخية، بل أولى ما يكون بين يدي التاريخ من وثائق حتى مر القصور وكر القصور.

ثانياً: أن القصص القرآني قد نعت منزلته بأنه (أحسن القصص)، حيث قال جل شأنه: (فَحَنّ نَّافِعُكَ عَلَىٰكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) يوسف الآية الثانية، والمعنى: أن القصص القرآني هو الخاتمة في الحسن والكمال والجلال.

ولما كان الحديث عن القصص القرآني وما فيه من جمال وجلال وكمال حديثاً متشعب الأطراف، يحتاج إلى مجلدات وأسفار، فإني أثرت أن ألقب عند خصوصية بتفرد بها ويتميز هي جمعه بين الدين والأدب والتاريخ:

فحين إذ ننظر إلى القصص القرآني من زاوية الأحداث التي يعرضها أو يشير إليها، يتأكد لدينا أن هذا القصص قصص تاريخي يستمد إنباته من حقائق التاريخ، بالقدر الذي يؤدي الوظيفة الأساسية المقصودة من البيان القرآني العظيم.

والقصص القرآني يتضمن توجيهات دينية تدعم سائر ما جاءت به الشريعة المحمدية من مبادئ وعقائد، وكل ما افكرته من خلق وعبادات وآراء زللفة، وعقائد وعبادات باطلة.. نلمح ذلك ونحسه أغراضاً وأهدافاً تلقى بين طيات هذا القصص وفي ثلغاه وحواليه.

والقصص القرآني قصص أنبيى باعتبار قلبه البقي الذى يصب فيه أحداثه، أو باعتبار إشتغاله على سائر مقومات القوة الفنية فى أرقى درجاتها، وعلى سائر أسباب التأثير التعبيري التى عرفها المخلوق، وما سوف يعرف، وهو الأستاذ الحق لكل أنباء القصة، أينما حلوا، وفى أى زمان حلوا.

على أن هذا القصص فى مجموع أبعته التى تزيد على ألف وخمسمائة يمثل ربع القرآن الكريم - كتاب العربية الأكبر - ذلك الذى جعل الجمال الأبهى أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فخطب فى هذا القصص وغيره من الجوانب التى تضمنها حاسة الوجدان الدينية بلغة جمال الأبيية، معتمداً على أن الدين والأبى صنوان فى أعماق النفس وقررة الحس، وعلى أن أشد المواعظ الدينية نفذاً إلى القلوب ما عرض فى أسلوب قصصى جذاب يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص وللتأثر بالأحداث والانفعال بالمواقف، وبملك للقدرة للباهرة على إخراج قائله أو سامعه من حدود نفسه إلى تلك الأجواء، فحيث فيها، ويندمج معها.

ويصعب على المرء أن يبرز هذه الثلاثية الرقعة (الدين والأبى والتأثير) فى كل قصة قرآنية، فإن ذلك يحتاج إلى أسفار تنوء بحملها الجبال.

لذلك أكتفى - هنا - بقصة واحدة، أسوقها مثالا يقى القارئ عن مشرقات الأمثلة، ألا وهي قصة موسى مع العبد الصالح الذى يسميه المفسرون (الخضر) عليه السلام.

وقد قررتها هي بالذات، لأنها وثيقة تاريخية فريدة، حتى إن اليهود الذين يدعون الإحاطة التامة بآخبار موسى، لم يعرفوها إلا بعد نزولها على الرسول عليه السلام. ونبدأ أولاً بما قلناه الحق فيها، ثم نتبع ذلك بالدراسة والتحليل الكاشفين عما فيها من أحداث تاريخية سهلت بلغة الجمال الأملية، تطبيقاً للبره الدينية.

وَنَزَّلْنَا بِهَا عَمَلَكُمْ عَنْ جَدِّكُمْ أَكْرَمَ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْأَلْنِي عَنْهُ سَبْعًا.

(سورة الكهف: ٦٠ - ٨٢)

هذه القصة الفريدة تمثل حلقة من سيرة سيدنا موسى عليه السلام الذي تحدثت عنه التوراة، ومع ذلك فإن ما جرى بين موسى والخضر من أحداث لا نسمع له ذكراً في الكتب التي بين أيدي اليهود والنصارى اليوم... فهي صفحة مغلقة من تاريخ موسى في هذه الكتب. إنها وثيقة تاريخية لا توصف إلا بأنها لوثيق ما بين يدي التاريخ من وثائق، ولم ترد إلا في القرآن الكريم.

والراجح حقاً: أن الخضر عليه السلام قد قل لموسى - وهو يودعه في نهاية الرحلة: (يا موسى! دعك من اللجاجة، ولا تمض في غير حاجة، وانتقل بعروبك عن صوب الناس) مشيراً بذلك إلى أن جميع ما اعترض عليه موسى، ولم يصبر حتى يعرف وجه الحكمة منه، قد جرى لموسى في حياته؛ بل إن كلا من الأحداث الثلاثة (غرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار بدون أجر)، قد حدث ما يقابله في حياة موسى وسيرته، فغرق السفينة الذي خاف موسى على أهلها من الغرق يقابله نجاة وهو رضيع من الغرق بعد أن وضعته أمه في التابوت، وألقته في النهر، فمن تجاه فكر على أن ينجي هؤلاء.

وقتل الخضر للغلام بغير نفس، يقابله في تاريخ موسى قتله للمصري حين دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من شعبه، والآخر من عدوه، فركزه موسى، ففضى عليه. وكان هذا قبل أن يوحى إليه. وبناء الخضر للجدار بدون أجر ليحفظ مال المؤمنين، يقابله: سقيه لقم ينثى شعوب بدون أجر، بل إن شعباً أرسل إحدى بنتيه تدعو موسى ليجزيه أجر ما سقى لهما. فالأحداث الثلاثة التي تراها في سورة الكهف ترى ما يقابله، في حياة موسى، وقد جاءت بالترتيب نفسه في سورة القصص، حيث قل سبحانه: (وأوحينا إليه أن أوحيه إن) (إن) القصص: ٧ وقال: (ومعل المدينة على حين غفلة من أهلها، فوجد ملاحاً ورجلين يقتتلان .. إن) القصص: ١٥، وقال: (ولما ورد ماء مدين ... إن) القصص: ٢٣، ٢٤، فترتيب الأحداث هنا كترتيب الأحداث هناك.

وعلى كل حال فإن هما بلغت القنطرة ويستوعب الانتباه: أن القرآن الكريم - في قصصه المعجز - قد ركز على سيدنا موسى - عليه السلام - تركيزاً قوياً، حتى إن المواضع التي ذكر فيها اسمه قد بلغت مائة وستة وثلاثين موضعاً، توزعت على أربع وثلاثين سورة. ولم يتكرر اسم نبي في القرآن الكريم يمثل تلك التصويب الأكبر الذي ألقى به سيدنا موسى عليه السلام.

ويعد النص السابق الذي اخترناه من سورة الكهف إحدى حلقات هذه القصة الطويلة التي أوردها القرآن الكريم عن هذا الرسول الكريم فهي تمثل قصة قصيرة من قصص هذه القصة الطويلة، وتتكون - كما رأينا - من ثلاث وعشرين آية لم ترد في غير سورة الكهف.

ولقد جاء ذكرها في هذه السورة - بالذات - سورة رابعة من صور الجمال ومطاباً بارزاً من معالم الإعجاز القرآني، ومظهراً من مظاهر الخلق الإلهية الدقيقة بوضع القصة في المكان الذي ينسبها ويلقب بها من سور القرآن الكريم.

فالقصة - من ناحية - تحتوي على جملة من الحقائق في كهوف، ولكن الكهوف التي تستر الحقيقة تكفي أولاً، ثم بعد ذلك تكفي الحقائق، ومن هنا فإن سيدنا موسى - عليه السلام - عندما يرى كهوف، ولا يرى الحقائق التي تسترّها لا يستطيع الصبر على ذلك... فعبد الصالح حكم بطله الذي علمه الله، وموسى عليه السلام حكم بما بطله، ولذلك اضطلم الحكماء، فعبد الصالح كان يقوم بعمل خير (حقيقة مستورة في كهف ظاهراً خفياً)، وموسى كان يرى في هذه الأصل ما هو الآخر فقط، ويحكم به، لأنه لا يعلم بواطن الأمور^(١).

والقصة - من ناحية أخرى - تمثل الحكمة الكبرى التي لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار، ثم تبقى مغيبة في علم الله وراء الأستار، فهي - إذن - ترتبط بقصة أصحاب الكهف والرقم في ترك الغيب لله الذي يدبر الأمر بحكمته، وفي علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر والفلكون وراء الأستار.. لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا

(١) معجزة القرآن للشيخ/ محمد متولى الشعراوي: ص ٢١٦، كتاب اليوم استقر عن مؤسسة الخليل، اليوم ١٩٨١.

بمقدار^(١).

والقصة - من نعمة ثالثة - تشير إلى العلم الذي يعنى الإيمان بالله علام الغيوب... العلم اللدنى الذى لا يتكشف إلا لمن آتاه الله رحمة من عنده، وعلمه من لدنه علماً.

ومن ناحية رابعة، فإن سورة الكهف قد لعبت - من بين ما لعبت - على قصتي أصحاب الكهف، وذى القرنين، وهما قصتان تزوتا حينما أوعز اليهود للمشركين أن يسألوا النبي ﷺ عنهما، وعن الروح، وقالوا لهم: (إن أخبركم بهن فهو رسول فاتبعوه، وإلا كن رجلاً مثقلاً تصنعون به ما بدا لكم). فلما أنزل الله سورة الكهف مشتملة على قصتي أصحاب الكهف وذى القرنين، جعلها مشتملة - أيضاً - على قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح لونه المشتركين واليهود معاً، وكذلك المسلمين، على أن النبي ﷺ لا يلزمه أن يكون عالماً بجميع القصص والأنباء، فهذا هو موسى - مثلاً - الذى كان يحترف به اليهود فى المدينة ولا يحترفون بمحمد رسولاً، يلتقى مع الخضر عليه السلام، ويخفى عليه تفسير الأحداث الثلاثة التى وقعت من الخضر، بل إن اليهود أنفسهم لم يعرفوا هذه القصة إلا عن طريق القرآن الكريم.

ومن ناحية خامسة، فإن الآيات التى سبقت هذه القصة فى سورة الكهف، قد ذكرت أن الإنسان لكثير شئ جدلاً، يثق فى رقبته، ولا يعتد بغيره، وحين نكبه الرمل بالآيات مبشرين ومنذرين يلجأ إلى الجدال بالباطل، ليدحض به الحق معرضاً عنه استهزاء وسخرية، ثقة فيما يتعاطى من الجدل والمراء، نسياً أن لكل علم نهاية، وأن نوى التجاج من هؤلاء لا يبالغون من العلم شيئاً مهما ادعوه^(٢)، فلما سب ما ذكره القرآن الكريم فى هذه الآيات أن يذكر من بعده قصة موسى مع العبد الصالح، لأنها قصة تكل على أن لى الله المختار موسى، وكليمه المجتبى لم يصل فى العلم إلى مبلغ ما تمكن به سواد من البشر والدرارية والنفذ.

لذلك هذه الأسباب وغيرها من مرافق الحكيم الخبير ذكرت هذه القصة فى

(١) فى ظلال القرآن كسيد قطب: مجلد ٤ ص ٢٢٨٢ بتصريف يسير.

(٢) البيان القرآنى، د/ محمد رجب البيهوى: ص ٢١٥، منشورات مجمع فبحوث الإسلاميه - ط دار التنوير للطباعة، ١٣٩٣هـ/١٩٧١م.

سورة الكهف دون غيرها من سور القرآن الكريم.

ولقد عرضها القرآن الكريم - كتاب العربية الأكبر - عرضاً قريباً يحجز الأنباء والبلغاء عن الإتيان بمثله. فقد صورت بوزارة لا مثيل لها فكرة الرحلة في طلب العلم والاجتهاد في كشف حقائق الأسرار، وكانت في هذا المجال من أروع القصص الذي يمكن تصديقه (بقصص الموالاة بين ما نظم وما لا نظم، وما تدرك من الأسباب الظاهرة، وما يخبى عنا من الأسباب الخفية).

إنها قصة رحلة عظيمة تنبئ بسبق القرآن الكريم إلى ما يسمى في عصرنا الحديث بأبواب الرحلات.. وهي رحلة عظيمة يختص فيها - كما نرى - التلخيص والمتمم الطاعة لله رب العالمين، ولا يبتغى فيها الاستغناء عن تلميذه سوى الأجر من الله.

إنها قصة نظمنا - من بين ما نظم - كيف نتحمل المشقة في تحصيل العلم، وكيف نذل كل الصعوبات التي نعرضنا في التحصيل، وكيف يستمر طالب العلم السماح من أستاذه ليدخل في تبعته، ويلج في ذلك حتى يلائق له بحسن الصحبة. وكيف يتجمل طالب العلم بالتواضع وحسن الاستجابة والإنصات لأستاذه، والاسترشاد بنصائحه، والتزلم لأوامره، والمصارعة بالاعتذار حين يشعر أنه قصر فيما يجب عليه لهود.

والقصة نظمنا - من بين ما نظم - كيف نتحمل المشقة في تحصيل العلم، وكيف نذل كل الصعوبات التي نعرضنا في التحصيل، وكيف يستمر طالب العلم السماح من أستاذه ليدخل في تبعته، ويلج في ذلك حتى يلائق له بحسن الصحبة. وكيف يتجمل طالب العلم بالتواضع وحسن الاستجابة والإنصات لأستاذه، والاسترشاد بنصائحه، والتزلم لأوامره، والمصارعة بالاعتذار حين يشعر أنه قصر فيما يجب عليه لهود.

والقصة نظمنا كذلك كيف يبصر الأستاذ مريدوه بأبواب النظم، وكيف يرد الصواب في كل خطأ يقع فيه التلميذ، وكيف لا يتركه جاهلاً بمبادئ الدرس، وأضايها العلم، وكيف ينسب العلم والفضل إلى الله في كل ما يشرحه من دروس.

لقد اشترت القصة بتصويرها المعجز وإيماءاتها التلمذة إلى كل هذه الأدب وكل تلك الأصول في التربية والتطعيم والتنهيب.

ومما لا شك فيه: أن القصة - كما نرى - تمتثل بالإيجاز والشمول، والوضوح

والصفاء.. كما تمتلئ بجذبية العرض، وقوة التنظيم وإعجاز التصوير ودقة الاختيار للألفاظ والتعبيرات الموحية المؤثرة.

ويخالفنا - في هذا المجال - أن نشير - مثلاً - إلى روعة التعبير بالخط (الخطي) عن (يوشع بن نون) خادم سيدنا موسى وعبيده الذي رافقه في هذه الرحلة تشبهاً بطوبى... وذلك أن الخط الحكيم والعبء والأمة يرفضه الخلق الفرقي، وينبو عنه الذوق الإسلامي، بدليل قول سيدنا محمد ﷺ: (لا يقل أحدكم فتاًى وفتقى، ولو سأل: عدى ولسى).

فالفرق الكريم بهذا التعبير قد أضفى على (يوشع) لُحماً لباس يتحلى به، وهو لباس القوة والشباب.. موطن الإحترق في الإنسان، وتضر طغيات العصر.. وهو مثالي تماماً - ولو كان شيئاً وفكناً - مع ما عهد إليه في الرحلة من صل، إذ كفت له مهمة لا ينهض بأعبائها إلا من كان في قوة الفتى وحملون الشباب.. وهو بهذه الصفة قد استطاع أن يواصل السير مع رسول من أولى العلم أخذ على نفسه - ومعه فتاه - أن يقل ساعراً حتى يتلقى بأستاده (الخصر)، ولو لمضى العصر كله في سبيل تلك، فما أروع التعبير بالفتى في هذه القصة المصورة لرحلة طمية شاقة طويلة..

ولننظر - أيضاً - إلى قوله تعالى: (أَلَيْسَ خَمَانًا؟)، وكيف لم يقل: (كئنى خدلى)، لأن العلمام مشترك بين موسى وفتاه، لا يختص به السيد كفضلاً، ثم يلقى للموتى ولضلته إلى الخلق، إذ ليس هذا من خلق الهداة^(١).

ولننظر - كذلك - إلى قوله تعالى: (أَوَلَيْسَ لِلَّهِ الْفُتُورُ)، وكيف لم يكن للجوء إلى السهل من الأرض، وكان تلك في الإنكاف حتى لا يتجشم موسى وفتاه المتاعب، لكنها رحلة العلم التي يركب فيها الإنسان لثيق المراكب، ويصعد إليها أوعر الصغور، لأنه يقدّر في ذلك أن ثواب العلم على قدر المشقة.

والله در الشاعر إذ يقول:

ومن طلب العلوم بغير كذا
سيرتها متى شاب الغراب؟

وما أروع التصوير الفرقي في قوله تعالى - على لسان موسى عليه السلام -

(١) أنظر: البيان الفرقي للفتور/ محمد رجب البيومي: ص ٢١٦.

(هل أتيتك على أن تمنى مما طمت رشدا؟) فسبنا موسى شخصية في القصة تمثل بالأدب البالغ في التعبير، فسبنا موسى - كما نرى - لم يطلب التملذة مع سبنا الخضر بلطوب الطلب العلى، وإنما بلطوب إثنائى طريقه الاستفهام لموحى بعدم الإلزام للاستفاد أو الإلحاح عليه فى قبول التملذة على يديه.

ثم يبلغ الأدب بموسى: أنه لا يجعل التملصه الطم من الخضر تملذة فصب، وإنما تبعية مطلقة واستئال للاستفاد مقابل بكلمة منه. على أن سبنا موسى لا يطلب مجرد طم - فلهيه من الطم الكثير - وإنما يطلب نوعاً خاصاً من الطم، ومن هنا لم يأل للخضر: (على أن تمنى مطلقاً) أو (على أن تمنى طمًا)، وإنما قال له: (على أن تمنى مما طمت) لفظ (من) للتعبير، أى على أن تمنى بضاً من الذى طمته، وكأنه يطلب نوعاً مما نسميه الآن بالتخصص أو الدراسات العليا. (عن مقال للدكتور/ عبد الحليم حطفى فى مجلة منبر الإسلام عدد المهرم ١٤٠٠هـ، ص ٣٠).

ونلاحظ فى هذا التعبير القرئى المعجز أيضاً: أن موسى يطلب الطم لغاية نبيلة وهدف محدد، وهو (إرشاد) فليس طمه لمجرد الترف النفسى، أو للمكثرة به، أو للطم لذاته، وإنما ليوصل به إلى غاية نبيلة محدودة وهى إرشاد القلوب، ويسترعى انتباهنا أن الحق سبحانه قال: (فوجعا عيماً من عيما ... فخرج) فأتى بقاء الحلف المرتبة لوقوع الأحداث، ولقدرة على نتيجة بحثهم، على حين أنه لم يأت بها فى قوله: (قال له موسى) فلم يأل: (قال له موسى) فلفظ ذلك أن زمن رؤية موسى للخضر هو زمن لقوله: (هل أتيتك) فسرعة حبه للطم، واستعجاله للطم لم يترك فناء الترتيب والطيب وقتاً، فموسى طلب الطم والتبعية للخضر فى نفس الوقت الذى رآه فيه حيناً!!

وما أروع التصوير القرئى فى قوله تعالى - على لسان عبد الصالح - (وَأَن تَسْتَظِيمَ مَعَهُ سُبُوكًا)، فإنه تعبير كان الهدف منه تنبيه سبنا موسى إلى حقيقة الفرق بين الطم الدنى والطم البشرى، فالطم الدنى ثقيل، وإن يصير عليه موسى، وإن يصير على اتباع الخضر بقلتى، ولما كان هذا الحكم يحوى شيئاً من القرابة، أو عدم الاختراع به، فإن الخضر لجأ إلى تطويل هذا الحكم وتطويله بقوله لموسى: (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا

أَمْ تَحِيطُ بِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيا؟

ونظرا لأن الخضر كان على دراية تامة بثقل العلم اللدني على موسى، فإنه قال له: (فإن اتبعتموه فلا تسألوني عن شيء حتى أخوضا لكم بحرا فمكروا). فنلاحظ أن نمرة الشك التي يوجهها لفظ (إن) ليست منصبة على الاتباع ذاته، وإنما نبتت من ثقة الخضر في التعبير عن شيء بطمه ويتوقعه، فهو يتوقع أن موسى لن يستطيع السكوت على ما يصدر عنه من أمور ظاهرها منكر، وإن كانت في الحقيقة التي لا يدركها موسى خيرا معروفا يشب الله عليه.

هذا ويسترعى القاري أن الحق سبحانه لم يصرح باسم الخضر، وإنما ذكره بصفته الثالث (مهماً من عباده أتبعناه وحمة من علمنا وعلمنا من لدنا علما) لأن العبودية هي شرف المقامات، بدليل وصف رسولنا بها في حديث الإسراء والمعراج، ولأن الرحمة هي الأسس الذي نبتت منه أفعال الخضر، فخرقه للسفينة رحمة بأصحابها المساكين، وقتل قصبي رحمة بولديه، وبناء الجدار رحمة بالفلاحين اليتيمين. وكذلك العلم للذي هو العلم الذي تميز به الخضر، كذلك يسترعى قنابنا في إعجاز التصوير القرآني لهذه القصة أن سيدنا موسى قد وصف خرق السفينة بأنه شيء عجب، أو عجيب، ووصف كل الغلام بأنه شيء نكر، أي تنكره العقول والشرائع، ولم يصف بناء الجدار بلحدي هاتين الصفتين، وإنما حطب عليه بقوله: (لَوْ هِجَرْتُ لَأْتَفَقْتُ عَلَيْهِمْ أَجْرًا).

وكل هذه التعبيرات بلغت غاية الثقة، ولا يصلح أحد منها موضع الآخر، لأن كل تعبير حكمة تخصصه بمكانه، فالمحادث الثالث لا يتعرض مع الشريعة، أما الأول والثاني فينقصان الأحكام الثابتة في الشرائع الإلهية، فليس هناك شريعة تبيح للإنسان أساس شيء ممنوع الآخر، ولا قتل نفس بغير ذنب. ولما كان خرق السفينة التي لم يخرق منها أحد أهون من قتل الغلام الذي ملك بالفعل، فإن موسى وصف خرق السفينة بأنه شيء عجب، ووصف قتل الغلام بأنه شيء منكر.

لما أروع الإعجاز في استخدام الكلمات الخاصة بكل حدث من أحداث القصة.

كذلك يسترعى قنابنا - في أراجنا لهذه القصة المعجزة - أن سيدنا الخضر

عليه السلام، لما لوك نكر العيب للسفينة نصبه لنفسه أنبا مع الريوية فقال: (فلربت)،

ولما كان قتل الفلام مشترك الحكم بين المصود والمنموم، استتبع نفسه مع الحق، فقال في الإخبار بنون الاستتباع (فلربما) ليكون المصود من القتل - وهو راحة الأبوين المنمومين من كفر غلامهما - عقداً على الحق سبحانه، والمنموم ظاهراً - وهو قتل الفلام بغير حق - عقداً على الكفر. وفي إقامة الجدار كان البناء خيراً محضاً، فحسبه الكفر للحق وحده، فقال: (فَأَوَّاهَ وَيَكْهَنُ)، ثم بين أن الجميع من حيث العلم التوحيد من الحق بقوله: (وَمَا فَضَّلْتَهُ عَنْ آمُرِهِ)^(١).

ويستمر على قنباها - كذلك - أن القتل المضارع المشتق من الاستطاعة قد جاء في القصة مرة بقتل عذرا: (سَأَتَبَكِّعُ وَيَتَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ سَهْرًا). وجاء مرة ثانية بدون لتمام هكذا: (فَكَيْفَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ سَهْرًا) أي هذا تفسير ما ضفت به نزعاً، ولم تصير حتى تفرك به ابتداء.

والحكمة من هذا التلويح في التعبير: أن الأحداث التي وقعت من الكفر كانت قوية ثقيلة على نفس سيدنا موسى، ولكن لما أسر الكفر لموسى وبين ووضح هان عليه أخرى السهولة وقتل الفلام وبناء الجدار بدون أجر، ومن هنا قيل الكفر الأثقل في التعبير بالأثقل في النفس، والأخف في التعبير بالأخف في النفس^(٢).

هذه لمحات بلاغية، وإشراف بقية ومصور جسيمة تستلهمها حين قراءتنا لهذه القصة في القرآن الكريم كتاب العربية الأكرم.

لما عن عنصر الأحداث فيها نجد أن القصة قد ركزت في بنائها على أحداث غامضة، وخوفية رهبة تنبههم وجوه الرأي فيها على كل ملكر، وإن كان موسى كليم الله حل وجل.

ولقد كان من أثر ذلك أن جاءت القصة مبهمة أعظم الإبهام، غامضة أشد الغوض، ولولا أن الأحداث الغامضة فيها قد فسرت في الختام لظل الجو الدلغى لها مشحوناً بالأمرار، ملثماً بالغوض والضبب.

(١) نظر في ذلك: دة السكتيل وبرة التلويح الخطيب الإسكندري: ص ٢٨١ در الألف الجديدة، بيروت ١٩٧٩ (طبعة الثالثة).

(٢) نظر في ذلك: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٦٤/٣ ط دار إحياء التراث العربي - ومثله قوله تعالى: (فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) وهو المصود إلى أعلى شبه الذي بناه ذو القرنين أمام بابو ج وماجوج (وما استطاعوا له نقبا) وهو أثق من ذلك، فقال كلاهما بناديه.

ونلاحظ من التلمز في الأحداث: أن الخوارق الرهيبة قد تجلت بصورة أكثر في القسم الثاني من القصة (أي بعد لقاء موسى والخضر) أما في القسم الأول فلم تكن هناك إلا خارقة واحدة تتمثل في عودة الحوت المضموى للملح إلى الحياة وإلى قفله سبيله في البحر سرياً. وقد بنيت القصة كلها على الخوارق، أيدي موسى بعينه كيف تكون المعجزات وخوارق العادات، وكان ذلك تمهيداً لرسالته المليئة بالخوارق كإغراق العصا حياة، وإخراج يده من جيبه يوضاء من غير سوء، وإفلاق البحر والحجر بالعصا، فبدى خوارق الخضر تدريجاً علياً لموسى، يتمرس من خلاله على رؤية المعجزات!!
ولقد اعتسدت القصة في عرض أحداثها المتلاحقة المتتابعة على طريقة السرد وطريقة الحوار معاً، لكن عنصر الحوار الجذاب المفسح عن المشاعر والخلجات هو القلب عليها.

ونرى الحوار في البدء يدور بين موسى وإياه، ثم بعد أن يؤدي القلي نوره، ويختلج من مسرح الأحداث يدور الحوار ويحتم بين أهم شخصيتين في القصة وهما موسى والخضر عليهما السلام.

وحين نأمل هاتين الشخصيتين الأسسيتين في القصة نجد أنهما تصوران اتساع لهوة المنفرجة بين علم الغيب وعلم الشهادة، فسينا موسى يقف وراء أسوار المحطود المشاهد، أما سينا الخضر فيغطي الأسوار المحدودة إلى فضاء ثلاثية الرحوب، نرى ما لا يراه المتفكرون.

ولقد ظهر سينا موسى - ومعه إياه يوشع بن نون - في بداية القصة، أما الخضر فقد ظهر بعد ذلك، حيث أخذ مكان البطولة جسيماً، وفي ذلك دلالة على أن هذه القصة من القصص التي تظهر فيه الشخصيات شيئاً فشيئاً بتتابع.

ويسترعى انتباهنا: أن القرآن الكريم لم يذكر أسماء الشخصيات الواردة في القصة - باستثناء موسى عليه السلام - وهذه ميزة كبرى من مزايا القصص القرآني، فإن أهم شيء هو العبرة والمقصد مهما اختلفت وتنوعت الشخصيات، ومن هنا نستخلص أن القرآن الكريم قد سبق إلى ذلك اللون القصصي المسمى عند النقاد بالمعاصرين (بالقصة ذات التوجيه المعنوي) وهي التي تتركز حول مقصد معين، وتعرض بالفكر الذي ينبغ هذا

المعزى، ويظل فيها تحديد شخصيات الأبطال. كذلك نجد من قصص الفلاح المنتهية بتحقيق الأمل، إذ انتهت رحلة موسى الشاقة بقاء الخضراء والتلمذة على يديه^(١).

ويلتصق الدرس بالقصة أنها لم تحدد التاريخ الذي وقعت فيه أحداثها، من حياة سيدنا موسى عليه السلام؛ هل كان ذلك وهو في مصر قبل خروجه ببني إسرائيل، أم كان ذلك بعد خروجه بهم عنها؟ ومتى هذا الخروج قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة أم بعد ما ذهب بهم إليها، فوالقوا حولها

لا يدخلون، لأن فيها قوماً جهلن؟ أم بعد ذهبهم في قلبه مارقين مبدلين؟

كذلك يلتصق الدرس أن القصة لم تحدد المكان الذي وقعت فيه أحداثها إلا بأنه (مَدْيَنَ الْهَبْرِيِّينَ) وبأن (مَدْيَنَ الْهَبْرِيِّينَ) هذا عند الصخرة التي أوى إليها موسى وقتاده، وتخذ عندها الحوت سبيلاً في البحر سرياً. ولكن أين كانت الصخرة هذه؟ وأين كان مجمع الهبريين ذلك؟ لا ندرى.

ومضى هذا: أن القرآن الكريم لم حدد مكان هذه القصة ولم يحدد، لحكمة خاصة تستوجب أن نقاب حدد تصوير القصة كما وريت في كتاب الله عز وجل، ولا نقاد لولئك الذين ربحوا يتفنون في النص على هذا المكان، فزعم بعضهم أنه ملقى بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب، وزعم آخرون أنه في أقصى بلاد المغرب عند طنجة^(٢)... الخ.

فكل هذه المزاعم ومثناها من باب الحس والتخمين، فضلاً عما بينها من تنافس وتضارب، وفضلاً عن أنها تصرفنا عما هي لفظة (مَدْيَنَ الْهَبْرِيِّينَ) من معنى إشاري كريم زائد عن المعنى الأملي لها، فهي تشير إلى حقيقة البعد الذي جمع الله فيه بحر الحديقة - وهو الملح الأجاج الذي لم يلق على الشرب منه أحد إلا إذا تصلى من ملحه، أو مزج بماء القدر كغلب الفرات، وهو الشريعة السالفة لجميع الناس، والتي لم يختلف عليها أحد لملاصقتها للحل والعمدة والعرف. ولقد الكفيل أن مزج الله له الهبريين، ليتناول منهما ما يحس به كل الحقائق التي خلق منها، من جسم وحس، وعقل

(١) انظر: القرآن والقصة الحديثة، لمحمد كامل حسن فحماني: ص ٥٨ وما بعدها، مطبع دار الكتب، بيروت، ١٩٧٠م.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٥١/٣ ط ١٩٨٤، انظر: (بدون تاريخ).

وروح، وهذا العهد الصالح يعطى من شرفه هذا من كان على شاكلته، ومن كان يريد الحياة الكامنة لجميع قسواه ومعالمه^(١). ولعل مما يؤكد هذا التفسير أن البحرين لا تذكران في القرآن إلا بهذا المعنى، أى لعدهما عذب فترات، والآخر ملح لجاج. قال تعالى: (وَمِمَّا آتَاهُم مِّنَ الْبَحْرِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَالْآخِرُ مُلْحٌ لِّجَاحٍ). قال تعالى: (وَمِمَّا آتَاهُم مِّنَ الْبَحْرِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَالْآخِرُ مُلْحٌ لِّجَاحٍ). (فرقان: ٥٣).

ومهما يكن من أمر هذا المكان، فإن القصة قد كتبت بالإشارة في مطلعها إلى أن سيدنا موسى عليه السلام قد قرر أمراً مغالياً حين قال لثاته: أنه سيمضى حتماً ومسافلت حتى يصل إلى هذا المكان المسمى (بمجمع البحرين).

ونلاحظ أن القصة لم تذكر لنا في البدء سوى هذا، ثم نلناها بعد سطور من بنائها أن (مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ) هذا كان عند الصخرة. كذلك نلاحظ أن القصة لم تذكر لنا في البدء سر ذهب موسى إلى (مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ) وإصراره على الوصول إليه، لكننا نلجأ - بعد سطور من بنائها كذلك - بهذا السر، حين يلتقى موسى بالخضر، ويطلب منه أن يتبعه ليتطم منه مما علمه الله وشدا.

فإذا كان ذلك اليوم يقولون: (إن عنصر المفاجأة في القصة هو مصدر الجانية والتشويق) فما هو ذا القرن الكريم وسبقهم إلى الخلية القلبي بهذا العنصر، فنحن نجد من تاملنا للجزء الخارجى والدلتى لهذه القصة أن هذا قصص يشيع فيها شيوعا يكاد يكون تافهاً، حتى لتحولها المفاجآت من مطلعها إلى نهايتها، بل إن المفاجأة قد أعلنت عن نفسها قبل أن يلتقى التلميذ والأساذ لأن موسى فوجئ بأنه - وهو كليم الله - لا يبلغ مبلغ بشر سواء في العلم والمعرفة والاستبصار.

ومن هنا يقرر إلى البحث عن الخضر، وما يرى أنه سيتعرض (هو وقرنائه) القصة بالطبع لمفاجآت أخرى، تصبح معها المفاجأة الأولى كلا شئ، وأى مفاجأة كبرى من أن يصد الخضر إلى حرق سفينة لمسلتين يصلون في البحر، وإلى قتل نفس زكية حرم الله قتلها بدون ذنب وإلى بناء جدار بدون أجر في قرية سائر أهلها بخلاء لبوا أن يضيقوها.

(١) موفى بعض قرى في القرن الكريم، محمد على سلامة، ص ٥٧ مطبعة استرقد الحيلة. مصر ١٩٨٥م.

إن قارئ هذه القصة أو سامعها لا يستطيع أن يأخذ نفسه مرتاحاً بعض الراحة بعد أن ينتكها، وإنما يحس بدفع يخلق عنده غولاً حتى من التشويق الرفيع، ويسوق نفسه إلى التطلع السريع لحل ما تضمنته القصة من مغالطات متوالية، وألفاظ غارقة، وما يزال كذلك حتى يفتأ بما فوجئ به سينما موسى نفسه حين قال له الخضر: (هذا فرق بيني وبينك)، وعندهذا يشعر القارئ أن هذا البطل قد انتهى دوره، وأن القصة قد لوحت بقرع ختام، وأن القرن الكريم قد احتوى على قصة محتشدة بالصراع والحركة والمغالطات والأحداث، فضلاً عما فيها من إعجاز التصوير، وجلال التعبير، وروعة الأداء، وكمال الإحكام، وسمو المضمون، ثم روعة الرمز إلى حقيقة الفكر الذي يسيطر على تكون بكتيرته الخاص وإوجته الطبا وفكرته الغارقة المطلقة.

وهكذا يتضح لنا من خلال التحليل الأدبي لهذه القصة: أننا أمام قصة قرائية عظيمة، تعد - بحق - مثلاً رائعاً لضرب من ضروب القصص في القرن الكريم. وأنها من صور الجبال والجلال والكمال ما يعجز البشر والجن عن الإحسان بمثلها، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً!!!.

هذا وقد زعم الدكتور نجيب الميبريتي في كتابه (المطلة العربية الأولى): أن موسى في هذه القصة ليس موسى بن عمران الذي أرسله الله إلى فرعون، وإنما هو موسى بن ميشاء.^(١)

وهذا زعم يحضنه دليل من السنة النبوية الصحيحة، كذلك يحضنه دليل من التاريخ، ودليل من القرن الكريم ذاته. أما الدليل من السنة، فهو ذكر هذه القصة في صحيح البخاري ومسلم، وفي الحديث: أنه موسى ابن عمران.^(٢)

وأما الدليل التاريخي، فقد قال أهل العلم بالتاريخ: إنما مات بطروب ويوسف طوبهما لسلام، وآل الأمر إلى الأسباط كثروا وتموا وظهور فيهم ملوك، فغفروا سيرتهم، وأقصدوا في الأرض، وأما فيهم لاسر والكهنة، فيمت الله تعالى إليهم موسى بن ميشاء

(١) انظر: المطلة العربية الأولى، د/ نجيب الميبريتي: ١٤١/١. مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء ١٤٠١م / ١٩٨١. نشر على الثقافة.

(٢) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني: ٣٣٤/١، ٣٣٥ ط دار إحياء التراث العرب.

بن يوسف عليه السلام، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وإدعاء أولاده وإقامة سنته وذلك قبل مولد موسى بن عمران بمائتي سنة^(١).

وأضاف أهل الطم بالتاريخ: (أن موسى بن ميشا يسمى موسى الأول وليس هو صاحب الخضر عليه السلام، وإنما صاحب هو موسى الثاني^(٢)).

ولما لدليل القرقي، فنحن إذ نتظر إلى قصة موسى مع الخضر نجد فيها ما يؤكد أن موسى - هنا - هو موسى بن عمران الذي تحدث عنه القرآن الكريم في مواضع عديدة، فنحن نجد سيدنا موسى في هذه القصة بعد الخضر بالصبر وعدم السؤال عن شيء حتى يحدث له الخضر منه ذكراً، ولكنه حين يرى الخضر يخرج السفينة ينسى ذلك كله أمام هذا التصرف العجيب الذي لا مبرر له في نظر منطقته العقلية، وينتفع مستغرباً غير صابر على لحظة الرجل، ثم يندفع مستغضباً حين يراه يقتل غلاماً، ومعهما حين يراه يبلى الجدار دون مقابل في قرية أهلها بخلاء.

ومضى هذا: أن موسى في هذه القصة ذو طبيعة تلقائية تدفاعية تفضي للحق، وتلك الطبيعة هي ذاتها طبيعة موسى بن عمران في بقية ما قصه الله عنه في القرآن الكريم، وكما تظهر من تصرفاته في أغلب أدوار حياته، مثل: وكراه الرجل المصري في الدفاعة من الدفاعات، ومثل سرعة قطعته حينما علم أن قومه عبدوا المعول فلقى ألواح التوراة، ولخذ برأس أخيه يجره إليه.. وهذه الطبيعة لم يحدثنا التاريخ بمثلاً عن موسى بن ميشا.

كذلك فإن هذه الأحداث التي قطعها الخضر كانت من بين ألف مسألة أعدها للخضر - بأمر الله - لموسى بن عمران، مما جرى عليه من أول ما ولد إلى زمان اجتماعه به، فإن حدث خرق السفينة الذي قلناه وإهلاكه وإبطاله النجاة من يد الملك الغصب الذي كان يأخذ كل سفينة غضباً، كما كان - كما سبق القول - في مقابلة القابوت الذي أطلق على سيدنا موسى في أيام قضاؤه إهلاكه وإبطاله النجاة من فرعون. كذلك فإن أول ما تحدث الله به موسى قبله القبطي بما ألهمه الله ووفقه له في

(١) قصص الأنبياء المسمى بحرف المجلس الثاني: ص ١٤٤ ط شركة النشرون بالقاهرة ١٩٨٢.

سره وإن لم يعلم ذلك، ولهذا أراه الخضر قتل الفلام، ففكر عليه قتله، ولم يتفكر قتله القبطي... وقد أراه الخضر إقامة الجدار من غير أجر، فقاتبه على ذلك، ولم يتفكر معاقبته من غير أجر لينتفى شعوب عليه السلام.

فهذه الأحداث الموسوية الخضرية تؤكد أن موسى المذكور في سائر الموضع القرآنية التي تناولته إنما هو موسى بن عمران ليس غير.

وقد أشار الشيخ محيي الدين بن العربي إلى هذا المعنى النقيض في إحدى موشحاته، فقال:

أخبرني سفيان الحصن بما نالهم

وقتل غلاماً إليك فالمعلم

ولا تكن للحالط الهـم

ومسك الختم خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع

قال رسول الله ﷺ : «الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ويعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله - بتقوى الله، وأحكام على طاعته وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد أيها الناس !! اسمعوا مني أيها لكم، فإنني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها.

إن ربا الجاهلية موصوع، وإن أول ربا أهلها به ربا عبي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب^(١)، وإن مآثر الجاهلية موضوعة، عور السلالة والسقاية^(٢) والعمد قود^(٣)، وشبه العمدة ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بصير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أركمكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم

^(١) يقول ابن خدام في السيرة النبوية : وكان موضحاً في بني ليث . قتله هذيل . معزول ما أبداً به من دماء الجاهلية.

^(٢) السلالة : حمنة الكعبة، والسقاية : سفلة الحجاج.

^(٣) عمدة : قتل العمدة والقود : قتل القتل عن كل.

أيها الناس : «إِنَّمَا التَّسْبِيحُ»^(١) زيادة في الكفر يفضل به الذين كفروا
يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً لواطوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله».

إن الرماد قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض إن عدة
الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات وواحد فرد.
در القعدة وحر الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان^(٢) ألا هل
بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس ! إن لتساكنكم عليكم حقاً، ولكم عليهم حق، ولكم عليهم
أن لا يوطئن فرشكم عهركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم،
ولا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن
وتهجروهن في المضاجع وتصبروهن صبراً غير مبرح. فإن انتهين وأطعكم
فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وإنما النساء عندكم عوان^(٣) لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة
الله، واستحلتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله، فاستقوا الله في النساء واستوصوا بهن
بحسب، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة، ولا يمل لأمرئ مسلم ماله أخيه إلا
عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، فلا ترجعن بعدى كفاراً
يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا
بعده : كتاب الله وسنتي، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد.

^(١) التسيب: شجر الخرم. كانوا يحرمونه عاماً ويحلونه عاماً آخر إن توافروا الإغارة فيقولون إنه بعد شهر صفر

^(٢) في رواية ابن هشام عن ابن إسحاق "ورجب مضر" وقد قال الفيدي ذلك كما ورد في هامش
"السورة للتبوية" لأن ربيعة كانت ترمي شهر رمضان وتسبى رجاءه من رجعت الرجل ورجعت. إذا
عظمت. فين عليه السلام أنه رجب مضر لا رجب ورجب.

^(٣) عوان - أسيرات أي عندكم بخلاف الأسيرات.

أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. كلكم لأدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، ليس لعربي على عجمي فصل إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، قالوا . نعم، قال : فليلع الشاهد الغائب.

أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من المراث، فلا تجور وصية لوارث من أكثر من الثلث. والولد للعراش والمعلم الخمر^(١) من ادعى إلى عمر أبيه أو تولى غم مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٢).

(١) للعراش أي لصاحبه، والمعلم أي أن هذا مقضى به رغم أنهاء.

(٢) في رواية ابن هشام جاء في آخر الخطبة هذا النص :

أيها الناس : سمعوا تولى واعتلوا فليمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن للمسلمين حقوق، فلا تمل لأمراء من أمية إلا ما أعطاه من طيب تنس فلا تظلمن أنفسكم ... اللهم هني بليت ؟ اللهم اشهد.

الدراسة والتحليل

أ- نظرات في مضمون الخطبة :

في موقف تاريخي عتالء؁ وفي مشهد مهيب رائع؁ وفي يوم من أيام الله المحرمة؁ وفي ساحة عرفات المطهرة؁ وفي حجة البلاغ أو حجة الوداع؁ ركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء؁ وحتف في الجموع الخاشعة التي تحيط به؁ يبلغ الناس وحى الله؁ ويلقى إليهم دستور الحياة؁ في آخر لقاء مع أضعف حشد من جموع المؤمنين؁ فقد حرص -صلوات الله وسلامه عليه- على أن يوصيهم وصيته الجامعة؁ فلعله لا يلقاهم بعد عامه هذا ولعله لا يقف بينهم بعد موقفه هذا فنادى فيهم أمراً بالسور والمعروف؁ داعياً إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة؁ ناهياً عن الفحشاء والمنكر والبغى؁ يحفظهم لعلمهم يذكرون؁ وكان الذين استمعوا لهذه الخطبة الجامعة نحو مائة ألف مسلم تجمعوا على شكل مؤتمر موسع ليسمعوا من قائدهم ومعلمهم ورسولهم.

وفي الحق أن الرسول الكريم لم يكن يخطف يومها فوق مجرد ناقصة؁ أو على ظهر بعير؁ ولم يكن يقف في رقعة من الأرض محدودة؁ أو بين جموع من الناس محدودة؁ وإنما كان يخطف من فوق أعلى وأعظم متور؁ نهتز أعراده بأبلغ وأجمع كلمات يلقنها الرسول الضمير الإنساني؁ ويصيحها في سمع الزمن؁ ويلقيها في قم الدنيا؁ لتطوف أرجاء الأرض هادية داعية إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

وكان صلوات الله وسلامه عليه حريصاً على أن تصل كلماته إلى كل سمع وشمس كل قلب؁ فكان يستعين برجل من صحابته هو ريعة بن أمية بن حلف فكان يصرخ في الناس ويقول يقول رسول الله؁ حتى تذاغ الخطبة في

أرجاء الوادى المسيح فيقول الرسول له : قل لهم أيها الناس ... إن رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول لكم : هل تدرون أى شهر هذا ؟ فيقولون : الشهر الحرام أى بلد هذا ؟ فيقولون : البلد الحرام . أى يوم هذا ؟ فيقولون : يوم الحج الأكبر . فيقول مؤكداً حرمان الله : «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا».

ولقد جمعت هذه الخطبة الجامعة، أصول الدين، وقواعد الشرع، ومنهج السلوك، ونظمت علاقة الإنسان بربه، وبمفسه، وبالمجتمع الذى يعيش فيه ... إنها أعلست الإنسان قبل أن تعرف مصائر الأرض ما هى حقوق الإنسان .. ؟ إنها رسمت الطريق، وأوصحت للعالم، وبينت حدود الله فقد ظلم نفسه ا ولم تكن تلك القيم بعيدة عن أذهان الناس فقد جاء بها القرآن وطبقها الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن ركز عليها الرسول قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى لتظل ساطعة متوهجة لا تهمل ولا تنسى.

ولنتقرب الآن من هذا التراث العالى، لنقف مع مبادئه وقفات تكشف لنا عن عظمة الإسلام ونبي الإسلام. تلك المبادئ هى :

١- الحمد لله : أقوى أسلحة المقاومة، وأعظم وسائل الاستعانة به والتوكل عليه. والثوية من الذنوب، والتعود من شروخ النفوس وسيئات العمل، تخليص من معوقات الخير، وإزالة المعوقات التى تعترض طريق السائر إلى الله.

٢- الرصية بتقوى الله والحث على طاعته، وهو عماد الحياة الكريمة، وتقوى العدة على العدو، وأعظم المكيدة فى الحرب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَصَرَّوْا

اللَّهُ يُنَصِّرُكُمْ وَيَهْدِي أقدَامَكُمْ» محمد : ٧، ويقول ﷺ «إن الله عز وجل يعار، وعبرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه» رواه البخاري ومسلم.

٣- حث الناس على أن يتدبروا ما يلقي إليهم، وأن يعقلوه، ويفتحووا له قلوبهم وعقولهم، فقد أحروهم النبي ﷺ أنه قد لا يلقاهم بعد عامه هذا وفي موقعه هذا، مما يجذب انتباههم، ويوقظ وعيهم، حتى يستوعبوا الصريحة، ويحرموا عليها أشد الحرص، فلقد أحس ﷺ باقتراب أجله فأحب ألا يلقي ربه إلا وقد أدى حق البلاغ لهذه الأمة الكريمة التي صنعها على عين الله حتى تمتد بها مسيرتها الحصارية على حيراط الله العزيز الحميد.

٤- حرمة الدماء والأموال، فكل للمسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، ولقد نهى الإسلام أشد النهي عن قتل النفس بغير حق وجعل جزاء القاتل الخلود في النار قال تعالى : ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ النساء : ٩٣، والقتل جريمة نكراء، يهتز لها العرش، وتضطرب منها الدنيا ففى الحديث الشريف «لرواى الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» رواه النسائي والترمذي والمقاتل لاحظ له من رحمة الله ومغفرته : «لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً» رواه البخاري وأبو داود «كل قنب عسى الله أن يفره إلا من مات مشركاً لم يؤمن قتل مؤمناً متعمداً» رواه أبو داود للنسائي. والدماء كؤل قضية يفصل فيها القضاء بين يدي رب الأرض والسمااء يقول ﷺ : «كؤل ما يقصرون الناس يوم القيامة فى الدماء» رواه الخمسة إلا أبو داود.

وكما حرم الإسلام قتل المتمس بغير حق، حرم أيضاً اغتصاب الحقوق،
وأكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الدِّينَ آمَنُوا لَا تُلَاحِظُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ
بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ﴾ النساء : ٢٩.

وفى الحديث الذى رواه الشيخان : «من ظلم قيد شبر من الأرض
طوقه من سبع أراضين»، ويقول عليه الصلاة والسلام : «من اقتطع حق امرئ
مسلم يعميه، فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» فقال : وإن كان شيئاً
يسيراً يا رسول الله ؟ فقال : «وإن كان قضياً من أراك» رواه مسلم وبهذا
أعلن الرسول الكريم قداسة الحقوق الإنسانية، وأرسى دعائم أروع حضارة
عرفها التاريخ.

٥- لقاء الله والسؤال عن الأعمال يوم القيامة، مما يدعو إلى محاسبة النفس
والاستعداد للعرض على الله، والإقبال على الطاعة، ومجانبة السيئات
﴿وَمَا آتَاكُمُ الدِّينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ مِنْكُمْ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ﴾ الحشر : ١٨،
﴿يَوْمَ يَكْفُرُ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ إِلَّا الصَّادِقِينَ﴾
شاهد المجادلة : ٦، وفى الحديث للشرىف : «لا تزول قدماء عبد حتى
يسأل عن عمره فيما أفاء، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين
اكتسبه، وفيما أنفق، وعن جسمه فيما أبلاه» رواه الترمذى.

٦- تبليغ الرسالة والإشهاد على ذلك من الله ومن الحاضرين وفى إحدى
الروايات أن الرسول ﷺ كان إذا قال : «ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد»
كان يشير بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس أى يردحها

إليهم، ليؤكد هذه الشهادة وأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ﴿وَمَا أَنهَا الرِّسُولُ
 عَلَيَّ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَلَئِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا ظَنَنْتَ رَسُولَهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾
 المائدة : ٦٧.

٧- وجوب أداء الأمانة وهي كل واجب على الإنسان نحو ربه لو نفسه لو
 الناس وتشمل كل نعمة أنعم الله بها على عبده، فعليه أن يحسن استعمالها
 في مرضاة الله ... إنها الدين كله ﴿لَئِنْ اللَّهُ تَبَايَعْتُمْ كَلِمَةً أَنْ تُوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى
 أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَعْلَمُوا بِالْعَدْلِ﴾ النساء : ٥٨، وعن أنس
 -رضي الله عنه- قال : «ما عطينا رسول الله إلا قال : لا إيمان لمن
 لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» رواه أحمد.

٨- إعتد الربا والثأر وهما من أسباب الدمار، واضطراب الأمن، وقد حرم
 الله الربا بجميع صورته ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ البقرة : ٢٧٥،
 ﴿يَسْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِّي السَّدَقَاتِ﴾ البقرة : ٢٧٦، وعن ابن مسعود
 -رضي الله عنه- قال : «لمن رسول الله ﷺ أكل الربا وموكله» رواه
 مسلم. زاد الدرمذي وغيره هو شاعديه وكاتبه والأعدى بالتأثر يفصلى إلى
 الإخلال بالأمن، ويؤدي إلى العوضى في القصاص، حيث يرتب عليه قتل
 الأبرياء، وقد قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لِتَكُنْكُمْ
 تَقْوَى﴾ البقرة : ١٧٩.

وكل من حرص على الأخذ بالتأثر، أو أمان على القتل بالإرشاد لو

إحضار آلة القتل، أو التستر على القاتل، فحكمه حكم القاتل في الفصاص في الدنيا، والعقاب في الآخرة، يقول ﷺ : «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن، لأكبههم الله في النار» رواه الترمذي. وقد أهدى الرسول ﷺ ربا عمه ودم ابن عمه لأن ذلك أدعى إلى امتثال أمره، حيث بدأ بنفسه وأهله في تطبيق مبادئ الإسلام وهكذا كان الأنبياء جميعاً، يسبقون الناس إلى امتثال ما يأمرون به، واجتناب ما ينهون عنه يقول شعيب عليه الصلاة والسلام : «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَكُمْ إِلَى مَا أَهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَفَهِقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» هود : ٨٨.

وهكذا أسير الرسول ﷺ أن ربا المجلس بن عبد المطلب موضوع كله أي مرهود وباطل وكان المجلس من أغنى التجار ولوفرهم مالاً وأرسمهم بخارة، كما أسير أن كل دم في الجاهلية موضوع، وأن أول دم يرضه دم ابن عمه عامر بن ربيعة، فقد كان مسترضعاً في بني ليث فقتله هذيل وهو صغير يحبر أمام البيوت وهي في حرب مع بني سعد، أصابه حجر فقتله، لو أصابه سهم لا يعرف راميهِ فقتل.

٩- القضاء على مآثر الجاهلية : أعلن الرسول صلوات الله وسلامه عليه- أن مآثر الجاهلية موضوعة وهي المآثر الصارة، فقد جاء في رواية أخرى: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع» أي لا قيمة له كالشيء الذي يلبس عليه وفلك كالعلوى والطيرة والغامة وصفر .. إلخ. أما المآثر الناعمة، فقد أقرها الإسلام وحافظ عليها، وفلك مثل السدانة وهي خدعة الكعبة، والسقاية والمراد بها سقاية الحاج.

١٠- حكم القتل العمد والخطأ : فالعمد أن يقصد من يفعله آدمياً معصوماً فيقتله، بما يغلب على الظن موته به وفيه القود وهو القصاص ويجوز لولى الجناية قبول الدية. والخطأ أن يفعل ما يجوز له فعله مثل أن يرمى ما يظنه صيداً لو يرمى عرضاً فيصيب آدمياً لم يقصده بالقتل وحكمه كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ النساء : ٩٢ .

وشبه العمد أن يقصده بما لا يقتل غالباً كمن ضرب غيره بسوط أو عصا أو حجر صغير أو لكزة في غير مقتل. وفيه الدية وهي مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية، وتلذع الدية من نوع ما يملكك تلقفها الحديث أبى داود عن جابر : «فرمى رسول الله ﷺ في الدية على أهل الإبل مائة من الإبل وعلى أهل البقر مائة بقرة وعلى أهل النعام ألفى شاة».

١١- انتهاء عبادة الشيطان بأرض الوحى : فقد دلت حولة الوثنية بظهور الإسلام، وبطل عمل الشيطان فى دعوة الناس إلى طاعته، ولم يبق أمام الشيطان إلا أمور يستسهلها الناس وهى عطورة، وهى التحريض على الشقاق، وإلقاء الفتنة لبث الخلاف فى صفوف الموحدين فليعلم أن يحذروه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ يَكُونُ عَدُوًّا مبینًا﴾ البقرة : ٢٠٨، وعليهم أن يحتصموا بالله وأن يستمسكوا بالرحلة فهى قوة وعزة ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران : ١٠٣، ألا ما أكثر قوى الشيطان المستعلاء الشيطان

التي تقرض بالسهمين الذوات، تريد أن تحطم دينهم وتقوض حضارتهم،
فعلينا أن نسد الطريق على مؤامرات الأعداء ولا نجعل للشيطان مكاناً
يسا.

١٢- تحريم التلاعب بالأشهر الحرم، ووجوب احتواء الرمن، بأن يكون على
هفته يوم علق الله السموات والأرض. وقد حرم الله التمسى وهو
تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا
جاء شهر حرام وهم يحاربون أحلوه وحرّموا مكانه شهراً آخر، وهكذا
حتى استندار التحريم على شهور السنة كلها، وكانوا يمشون في
التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة. والسبب زيادة في
الكفر أى كفر آخر ضمره إلى كفرهم ليواطوا أى يوافقوا عدة الأشهر
الأربعة المهرمة.

١٣- حقوق النساء وواجباتهن، وتأديهن عند التشاور، والرصيدة بهن
لضعفهن: وفي تقرير هذه الحقوق والواجبات بين الزوجين حفظ لكرام
الأسرة، والأسرة لبة في بقاء المجتمع، يقوى بقوتها، ويضعف بضعفها،
فعلى المرأة أن تطيع زوجها، وتحافظ على ماله وعرضه، فلا تدخل فيه
أحدًا إلا بإذنه وأن تلبس لباساً من العفة وتصور نفسها من مواطن
الشبهات فإن خالفت هذا للمتهج الإسلامى فقد أذن الله في تأديها
وذلك بالحجر في المضجع أو ضربها ضرباً غير مبرح أى غير مؤثر ولا
شاق، وإن أطاعت فلها حقها بتوفير ما تحتاجه من طعام وكسوة ونفقة
بالمعروف .. واستوصوا بالنساء خيراً، فإتھن عوان عندكم .. أخذتموهن
بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء،

وبذلك أكد الرسول الكريم حقوق المرأة، ورد عليها كرامتها لأنها
لقيت من قبله صبراً من الممت وكثرتا من المهانة !

١٤- ميثاق رسول الله ﷺ : لقد ترك فيما كتاب الله رسة نبيه، محجة
بيضاء، وأمرأ يئنا، وصراطاً مستقيماً لا يزيغ عنه إلا هالك ﴿وَاهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا
السَّالِّينَ﴾ المائدة: ٦، ٧.

١٥- المسلم أخو المسلم : فلا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، ولا يأخذ منه
شيئاً إلا عن طيب نفس. يقول ﷺ : «لا تحاسنوا ولا تناجشوا، ولا
تباغضوا، ولا تبايروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله
إخوة، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره التقوى ههنا
سويشهر إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه
المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» رواه مسلم.
وبهذا أعلن رسول الإسلام الحقوق الإنسانية المقدسة قبل أن تولد
المنظمات الدولية.

١٦- خطر الانكسار والعودة إلى الكفر بالتناحر والتضارب فقد تركنا رسول
الله ﷺ أمة واحدة، ولكن مؤامرات الأعداء ودسائس الاستعمار تعمل
على التفريق بيننا، جرباً على دستورهم "فرق تسد" والرسول الكريم
يخبرنا من أن تعود بعله متباعدين يضرب بعضنا رقاب بعض فاجتماع
الكلمة وتوحيد الصفوف هما الوسيلة لبقاء الأمة وحفظ كيانتها
والاختلاف طريق الضعف والانهيار، يقول ﷺ : «لا ترجعوا بعدي

كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض» رواه الترمذى. ويقول : «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية» رواه البخارى.

١٧- وحدانية الألوهية، ووحدة الأصل لجميع الناس : فإن للناس رباً واحداً، وهم مهما اختلفت أحاسهم ولوانهم وأوطانهم يرجعون فى النهاية إلى أصل واحد هو آدم أبو البشر وآدم من تراب وهذا يدعو الناس إلى أن يعيشوا على هذه الأرض أئمة متعاونين لا متعادين ولا تعاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ المحرمات : ١٣.

١٨- تحديد الموارث وحكم الوصية : حيث بين الرسول الكريم أن الله تعالى قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ﴿فَرِيشَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء : ١١، ولقد بينت الآيات الواردة فى سورة النساء نصيب كل مستحق فى الميراث، وقد فرض الإسلام العمل بهذه الأنصبة المقررة فى كتاب الله وسنة الرسول، يقول النبى ﷺ : «أقسموا للمال بين أهل المفروض على كتاب الله تعالى» رواه مسلم وأبو داود. وتفضل بعض الأولاد على بعض، وإعطاء الذكور دون الإناث، تفرقة ظالمة، وتصرف حرام، لأنه مدحاه للعلووة والحقد الدائمين وقد قال ﷺ : «سواء بين أولادكم فى العطية ولو كنت مفضلاً أحداً

أفضلت النساء» رواه الطبراني والبيهقي. وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : انطلقت بى أبى يعلى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، أشهد أنى قد نزلت النعمان كذا وكذا من مالى فقال : «أكل بنيتك قد نزلت مثل هذا ؟ قال : لا، قال : فأشهد على هذا غوى، ثم قال : أيسرك أن يكونوا إليك من الور سواء، قال : بلى، قال : فلا إذا» وفى رواية «اتقوا الله واعملوا من أولادكم» رواه الخمسة.

وبين الرسول أيضًا أنه لا وصية لوارث، وهذا يحمل على عدم إحالة الورثة ذلك، أما إذا أجاز باقى الورثة العصة فهى صحيحة، لحديث الدارقطني «لا وصية لوارث إلا أن يميز الورثة» والجمهور على هذا، وقال بعضهم : لا تصح وإن أجاز باقهم، لأن المنع فيها حق الشرع فلا يملكونه ولا تجوز وصية لغو وارث فى أكثر من الثلث لقول النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص : «الثلث والثلث كثير إنك إن تدع ورثتك أعياء، خير من أن تدعهم عالة يتكفرون للناس» رواه مسلم وأبو داود والنسائي. أى أن للشرع فى الوصية الثلث وهو كثير، بل النقض عنه مطلوب، فإن ترك الورثة أعياء، خير من تركهم فقراء يسألون الناس ويمدون أيديهم يطلبون الصدقة.... ١.

١٩- حكم ولد الزنا ولمن ينسب....! فالزنا جريمة بشعة، وفاحشة من أكبر الكبائر : «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَثَاءً سَيِّئًا» الإسراء : ٣٢، وحكم الزانى المحصن الرجم حتى للموت وغر المحصن حبل مائة وتغريب هام أى نفيه. واللعنة المحرمة الناجمة عن جريمة الزنا لا تنسب إلى الزانى، وإنما تنسب الولد لأنه كما قال الرسول ﷺ : «الولد للفراش وللعاقر الحجر» أى ولد الزنا لأمه وللعاقر أى الزانى المحترق أى الخيبة

والحرمان فلا شيء له، والعرب تقول في ذلك : له الحجر، ويعيه الزاب
أى لا شيء له !

٢٠- الانتساب إلى غير نسب صحيح أو إلى موالى غير حقيقتين موجب للعبة
الله تعالى بالإسلام يحافظ على صحة الأنساب ويأمر بمراعاتها إذ
على الأنساب تقوم القرابة، وتترتب أحكام كثيرة، من النكاح والمواث
وغير ذلك، وضياح الأنساب أو اختلاطها يؤدي إلى الفوضى ويفضى
إلى ضياع الحقوق. الشرع يفرض إلحاق كل ولد بأبيه ﴿يَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ
هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الأحزاب : ٥، إنه عدل للوالد الذى نشأ الولد منه
وعدل للولد الذى يحمل اسم أبيه وخصائصه وخصائص آباءه وأجداده
وعدل للحق فى ذاته الذى يضع كل شيء فى مكانه. ويفرض الشرع
أيضاً احترام الولاء، ويوجب إلحاق كل معتق بمولاه، والولاء شرعاً :
عصرية سببها نعمة المعتق على عتيقه ويرث به المعتق وعصبته المتعصبون
بأنفسهم فعن الحديث الشريف : «الولاء لمن أعطى الورق وولى النعمة»
رواه الخمسة. أى الولاء لمن دفع الورق وهى الدراهم المصروفة واشترى
بها الرقيق وأولاه نعمة الإعتاق. فمن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير
مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً
ولا عدلاً.

إن فى هذه المبادئ العشرين التى تضمنتها الخطبة الجامعة فى حجة
الوداع، ما يوضح الحقوق والواجبات، وما يرسم منهاج السلوك الصحيح
ويضع أساس الحياة الكريمة، مما لو عمل به المسلمون لكانوا بحق عمرة
أعرجت للناس.

هذه هي معاني تلك الخطبة الجامعة، وتلك أهم المبادئ التي احتوتها،
وراضح أنها تدور في إطار إرساء القضايل الإنسانية، والقِيم الإسلامية، ليعم
الخير البشرية ولتسود المحبة بين الناس، وليعيش المسلمون حياة طيبة في ديارهم
ولينالوا الثواب العظيم في آخرتهم.

ب - الأساطير والأساليب في الخطبة :

من المقاصد المقررة الثابتة التي لا مراء فيها، أن ألفاظ الرسول ﷺ، في
حديثه وخطبه، قد برزت من الأغراب والتعقيد، والاستكراه فهي ألفاظ
واضحة سهلة مألوفة لها بهاء ورونق، تفرح بها القلوب، وتشرح لها الصلور،
وتترشح إليها الأسماع والأفئدة.

وبدراسة خطبة الرسول ﷺ - التي سبق عرضها - من ناحية ألفاظها،
يتضح ما سبق ذكره، كما يتضح أيضاً أن الرسول ﷺ لم يستعمل المصنع -
وما جاء منه جاء عفواً - بل كان يحرص منه بسبب استعمال الكهان له في
الجاهلية ولذلك صد عنه كما صد عنه الخلفاء الراشدون، رضوان الله عليهم.
وقد وضع الرسول ﷺ بأسلوب عطايشه، أسلوباً اتبعه الخطباء من
بعده.

فهو تبدأ بالحمد لله، والثناء عليه، ثم بإعلان الثوبة والاستغفار
والإقرار بالوحدانية للواحد القهار، والتصديق بنبوته للمصطفى المختار سيدنا
محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يشرع في الموضوع الذي أراد أن يتحدث عنه.
ويلاحظ على أسلوب الخطبة الجامعة - التي نحن بصددتها - كثرة
استخدام صيغة أيها الناس ومرجع ذلك إلى عموم رسالة النبي محمد ﷺ، فهو

مرسل إلى الناس عامة، مذ بحث وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك ختم ﷺ خطبته ووصيته بقوله : فليبلغ الشاهد (الحاضر المستمع) العائب عن الموقف، أو المذنب لم يولد بعد.

كما أفادت هذه المصيفة -أيها الناس- صيغة النداء والخطاب جلد الانتباه، وإيقاظ الأسماع والعقول، وتهيتها للقضايا التي أثارها الرسول ﷺ وذاك مظهر من مظاهر البلاغة في هذه الخطبة.

كما يلاحظ أيضًا شيوع أسلوب التقرير والإيضاح، حتى يؤمن المستمع بصدق ما يقوله ﷺ، ويستقبل الحكم يقين واقتناع، وذلك مشاهد في قضية تحريم المال والدم، وتحريم النفس، وفي بيان حقوق كل من الرجل والمرأة في الإسلام، وفي إعلان الأخوة بين المؤمنين والمساواة بينهم في الحقوق والواجبات «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أَعْوَةٌ» إن ربكم واحد وأباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى.

هنا وقد سيطر الأسلوب الخفوي على أساليب الخطبة، ويرجع ذلك إلى أن جل هم الرسول ﷺ أن يفتح الناس بالحجة والبرهان، بما ساقه من قضايا في ثنايا عطبته.

كما جاء الاستشهاد ببعض آي الذكر الحكيم -القرآن الكريم- على لسان رسول الله ﷺ وذلك في قوله ^(١) «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ...» الآية.

(١) سورة نساء : الآية ٣٧.

وفى قوله ^(١) : ﴿إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ الآية.

وفى قوله ^(٢) : ﴿إِنِ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

كما استوحى الرسول ﷺ قوله تعالى ^(٣) : ﴿فَوَصَّيْكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ

لِلَّذِكْرِ مِنْ خَطِّ الْأَتْسَنِ...﴾ الآية.

وذلك فى قوله ﷺ . «إن الله قسم لكل ولث نصيبه من اللوات».

واستوحى أيضاً قوله تعالى ^(٤) : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

وقوله تعالى ^(٥) . «ادْعُوهُمْ لِأَنَّهُمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ».

وذلك فى قوله ﷺ : «من ادعى إلى غير أبيه...».

هذا والخطبة بأسلوبها التى ظهرت عليه، قد جمعت بين عنصري

الاستمالة والإقناع، وهما من سمات الخطبة النبوية.

وقد تحققت الاستمالة فى الخطبة لاشتمالها على قصر الفقرات والتنوع

بين الأساليب، فمنها ما يهدف إلى الإثارة والحث، أو التنبيه كالأساليب التى

بدأت بالنداء والأمر «أيها الناس اسمعوا مني، ومنها ما يهدف إلى الإقناع، كما

سيطر عليها جو عاطفى هدفه الإشفاق، والحرص على النجاة، وتحقيق الخير،

كما تحقق الإقناع فى الخطبة بالتفصيل بعد العموم، والتوضيح بعد الإجمال.

^(١) سورة المجرات : الآية ١٠.

^(٢) سورة المجرات : الآية ١٢.

^(٣) سورة النساء : الآية ١١، ١٢.

^(٤) سورة الأحزاب : الآية ٤.

^(٥) سورة الأحزاب : الآية ٥.

ويبدو أن الرسول ﷺ كان يشعر بدنو أجله وقرب رحيله، ولذا بدأ بقوله : أيها الناس : اسمعوا مني أليس لكم قلوب لا أدرى لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا.

وكان يختم كل فقرة من فقرات خطبته، بقوله . ألا هل بلغت ؟ اللهم شهد.

وبقوله هذا، أراد ﷺ أن يورث ذمته، من الأمانة التي حملها الله له، ويعلم على الملأ أنه بلغ الرسالة، التي أمر بتليفيها، ألا هل بلغت اللهم اشهد.

وبعد: فهذه الخطبة بأسلوبها التي جاءت عليه، قد جمعت بين الموعظة الإسلامية، والتشريع لتهج قريش، حيث عرض الرسول ﷺ على المسلمين أهم مبادئ دستور الحياة الإسلامية الصحيحة، موجزة، مركزة، قائمة على الكرامة والوحدة والتعاون، واحترام المرأة ومراعاة حقوقها ومحاربة الفساد، والبعد عن دسائس الشيطان.

كما أنها كسائر خطبه ﷺ - نموذج للبيان يقتبس الأديب من لفظه، ويمجد البليغ فيه المثل الذي يحتذى ليصل بكلامه إلى غايته.

خطبة واصل بن عطاء الخالية من حرف الراء

«بسم الله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي علا في ذنوبه،
وَدنا في علوه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حيط ما خلقت،
ولم يخلقه على مثال سبق، بل أنشأه ابتداءً، وعكسه اصطفاً، فأحس كل
شيء خلقه ونعم مشيئته، وتوضع حكمته، فنزل على لوهيته، فسبحانه لا
مستقب لحكمه، ولا دافع لقضائه، تواضع كل شيء لعظمته، ودا كل شيء
لسلطانه، ووسخ كل شيء مصله، لا يضرب عنه مثقال حبة وهو اسمع السم.
وأشهد أن لا إله إلا الله ولا شريك له لا مثيل له، إلهاً تقدست أسماؤه، وعظمت
آلاؤه، علا عن صفات كل مخلوق، وتنزه عن شبه كل مصراع، فلا يلفه
الأرقام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يُعصى فيعلم، ويُدعى فيسمع،
ويقبل التوبة عن عباده ويهز عن السموات ويعلم ما يفعلون. وأشهد شهادة
حق، وقول صدق، بإخلاص نية، وصدق طوية، لأن محمد بن عبد الله عبده
ونبيه، وخالصة وصفه، انتهت إلى خلقه بالنبات والهدى ودين الحق، فبلغ
مألكته، ونصح لأمة، وحاهد فنى سبيله، لا تأنس في الله لومة لائم، ولا
يصله عنه زعم زاعم، ماضياً على مته، موفياً على قصده، حتى أتاه اليقين.
فصلّى الله على محمد وعلى آله محمد أفضل وأزكى، وأتم وأتمى، وأجل وأعلى
صلاة صلّاها على صفة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك، إنه حميد
مجيد.

أوصيكم عباد الله مع أنفسى بتقوى الله والعمل بطاعته، والمجانبة
لمعصيته، فأحسبكم على ما يلبيكم منه، ويُزلفكم لديه، فإن تقوى الله أفضل
زاد، وأحسن عاقبة في معاد، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزيورها وخلقها، وفوائد

لذاتها، وشهوات آملها، فإنها تَغْزُلُ قليل، ومدة إلى حين، وكسُوءُ شيءٍ منها يورث، فكم عايتهم من أعاجيبهم. وكم نصبت لكم من حبالها، وأهنتكم ممن جئت بها، واعتمد عليها، أخذتهم حُلُوءًا، ومرجت ضم سمًا. أيسر للشوك الذين يوا الملائك، وشهدوا المصانع، وأوتقوا الأبواب، وكاثقوا الحُجَاب، وأعلوا الجلياد، وملكوا البلاد، واستخدموا السلاسل، قبضتهم بحملها، وطحتهم بكسكنها، وعرضتهم بأبابها وعاصمتهم من السعة ضيقًا، ومن البر ذلًا، ومن الحياة فناء، فسكروا اللحد، وأكلهم اللود، وأصبحوا لا تعين إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تُجس منهم من أحد ولا نسمع لهم نيسا. فتزودوا عافاكم الله فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولى الأبواب لعلكم تُفلحون. جَعَلْنَا الله وإياكم من يتمتع بمواعظه، ويعمل لحظَه وسعادته، ومَن يستمع القولَ يَشُغُّ أحسنَه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الأبواب. إن أحسن قصص المؤمنين، وأبلغ موعظ للتقوى كتابُ الله، الزكية آياته، الواضحة بيناته، فإذا تلى عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تهتدون.

أعوذ بالله القوي، من الشيطان المغوي، إن الله هو السميع العليم. بسم الله الفتح المنان. قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفورًا أحد.

فمعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، وبالآيات والوحي المبين، وأعاننا وإياكم من العذاب الأليم. وأدعنا وإياكم جنات النعيم. أقول ما به أُعطاكم، وأستعجبُ الله لي ولكم.

هذا هو نص الخطبة، وهو نص ليس بالقصير، وذو قيمة عالية مستمدة من الظروف التي أحيطت به، وحسبها أنها ألقيت بديهة وارتجالاً في حفل جامع يتصلره وإلى العراق، ويجتمع فيه عليّة القوم، ويحشد له أنصار الخطباء،

وأربع التحسين، ومادة الخبء فى عصر راصل، ويتارى الجمع على مصدر القول، ويتزع الذين سبقوه، يحجب القوم بحطبهم التى صبروه، وبحقوه، - - - ينهض راصل من بلدهم وهم يهزء، وبلدته تفتى، ويرتجل هذه الخطبة أربعاً، ويتعصبها اقتضاباً، ويطل منها إطالة، ويتزع منها حرف الراء نزعاً، وهو على هذا اللقام الرهيب، فاستحورد على القنوب، وسيطر على الشاعرة، وأعجب منافسيه بهذه العبقرية الخطابية النافرة.

والخطبة - كما ترى - ذات طابع إسلامى، وتلور حول موضوع واحد غايته التذكير والوعظ، والمداية والإرشاد وقد استهلها بمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم نثى بالشهادتين والصلاة والسلام على رسول الله - صلى الله عليه وسلم. - ووصاح أنه قد أسهب فى مقدمة الخطبة إسهاباً طلياً لا تعرفه لأحد من رصمائه. وشرع بعد ذلك فى الحث على تقوى الله حق تقواه، وعلى الطاعة والعمل الصالح، والتزود بالتقوى لما بعد الموت. ثم أخذ يحذر من الدنيا وزينتها وعندها وموائن لذاتها وشهوات آمالها. واسترسل على هدى القرآن الكريم - يتحدث عن النول القديمة والأمم الفائرة، متبعاً من ذلك العبرة. ثم عاد مرة أخرى إلى الرصية بالتقوى والعمل الصالح، ودعا إلى الانتماع بالقرآن الكريم وما يتوهم من أحسن القصص وأبلغ اللواعظ، ونوه بكتاب الله الحق الخالد، وثلا ما تيسر له منه، بعد أن أجرى الاستمافة والسئلة بأسلوبه الذى يجانب الراء. ثم عتم الخطبة بدعائه لنفسه ولستمعية أن يكونوا هم يتتفع بالموعظة الخمسة.

ويمثل "اللول عن الكلمات ذوات الراء" من أحسن خصائص هذه الخطبة ومزاياها الفنية، فأت إذ تقرأها من لولها إلى آخرها لا تجد لفظة واحدة تشتمل على هذا الحرف؛ بل تجد كلمات غالية منه، وتراذف المشتعلة عليه فى

المسيح، ولمنع لتنتظر أنه يعبر بحذق ومهارة- من اللفظ الرافى إلى المرادف له، مما يبيح عن مقطرة ضيقة لا تتجنى إلا للأفئدة من الخطباء، فهو -حين يريد أن يقول: «نأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له» يقول: «نأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شئيل له» وإذا أراد أن يقول: «نأشهد أن محمداً عبده ورسوله» أرسله إلى خلقه بالقرآن.. فبلغ رسالته» قال: «نأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ابتعثه إلى خلقه بالبيات... فبلغ مالكة...» وإذا أراد أن يقول: «أعوذ بالله المسيح العليم من الشيطان الرجيم» بسم الله الرحمن الرحيم» قال: «أعوذ بالله القوي من الشيطان القوي» بسم الله الفتاح للناس... وإذا أراد أن يوضح خطيئته بسورة من القرآن الكريم فإنه يتوك كل السورة، ويقتبس سورة الإخلاص لخلوها من حروف اللراء. وإذا أراد أن يقتبس من السور الأخرى آيات فيها هذا الحرف، فإنه يتجنب الاقتباس اللفظي، ويلجأ إلى اقتباس المعنى، أو ذكر مرادف اللفظة ذات الراء، كقوله: «لا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يورجه حفظهما»، وقوله: «مغال حبة» بدلاً من «مفضل فرة»، وقوله: «أصبحوا لا تعابى إلا مساكنهم» بدلاً من «أصبحوا لا ترى إلا مساكنهم».

إن بديهة الخطابية الحاضرة، وثروته اللغوية الواسعة، ومقدرته الفائقة على إعفاء لثغته هي التي جعلت اقتباسه من القرآن الكريم يأتي على هذا النحو، وهي التي جعلته أليئساً- يتجنب هذه الكلمات (الأحمر - قرينه - اقرب - إراقة - رهوة - راذ - يقربكم - الأعره - الصنبر - القبور - ديارهم - آثارهم - لا تشمر - ركزا)، وكثيراً من أشباهها، فقال -بدلاً منها-: (الباقى - دنوه - فنا - مشقة - ألوهية - مقب - يذنيكم - معاد- الكلكل - اللحد - مساكنهم - معالهم - لا تحس - نيسا)... وهكذا ترى

"واصلًا" في كتي الخطبة؛ بل في سائر كلامه وخطبه ومحاوراته، عني لحدو
الذي لمساها في الشواهد التي سقاها قبل هذه الخطبة

عني " هذه الخطبة " بعد رتبة من هذه الناحية فحسبها بشي هذا !
عصائص أخرى تسمى من شأنها وترفع من قدرها، وتضفيها على مص
الخطب المتنازة... إذ يشيع فيها - كما ترى - الأسلوب اللبني عني المروحة
والزاد والطاق والمقابلة بين المعاني، وتخلو من الألفاظ الدريسة والبنية
والشاذة، وذلك نسمر عرصها وبيل موضوعها وقد استظهر الخطيب في
مقدمتها ما كان يقوم به من من التعميم عني الله تبارك وتعالى...
كمثله شيء من مخلوقاته. وقد ردد في عتوبها ما كان يجرى كسرها...
عصره - على ألسنة الرعايا والخطباء كالحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز،
ومليمان بن عبد الملك من الدعاة إلى التقوى، والتخدير من مبادئ الدين،
وتصور نهاية الأحياء في ظل وهران

وتشتمل الخطبة - كذلك - على ألفاظ مسجوعة لكس السجع يسير
وبدون تكلف، ومواضع في الخطبة واضحة يسهل على القارئ الوصول إليها.
كما تشتمل الخطبة على الإقناع والامتمالة، ودفعة للتميز وقوة التأثير، وتناول
الحقائق للمعوسة والمسائل الجادة الواقعة النابتة عن التهوريم الخيالي، ولا عروا
فإن الخيال من سمات الشعر لا الخطابة.

وتبدو - في الخطبة - عناية صاحبها بالتوضيح الكافي، والشرح الواضح،
واعتماده على الجملة القصيرة، وعدم الفضل في التفسير بين أمرين، واللجوء
- أحيانًا - إلى الأسلوب الاستهامي التعميمي، وملازمة ألفاظ الخطبة للموضوع
الذي يتحدث عنه. وهو موضوع واحد - كما ترى - رئيسي الجوانب الرئيسية
منطقيًا سلسًا، فجاء كل جزء مبنيًا على الذي قبله. وقد ابتعد الخطيب عن

التكلف ومرويق الكلام، وأكد ما يحتاج من أفكارها إلى توكيده، وابتعد عن
الحشر والكلام الكثير الذى لا فائدة منه

ثم إن هذه الخطبة توجع طيب من حطب القرون الثانی المحسوس الذى
يتسم بالصراع السياسى بين الأحزاب المتخلفة، وتعد للمذهب فى علم
الكلام، وعلى الرغم من هذا، فقد جاءت رغبةً خالصةً متجسدةً للدعوات
السياسية، والتصورات المذهبية والرائع - حقاً - أن صاحبها، يحامل الحوائى
الأموى الذى كان يتمتع للمخطبة بالثناء عليه، وذكر فضله والآله، والتنويه
بمصر عهده وازدهار أيامه؛ بل استمر هذه الفرصة وقام بإوجب التذكير
والوعظ والهداية والإرشاد. الأمر الذى يبنى بأن الطابع الدينى كان غلباً
على الخطباء - فى ذلك زمان، وأن الرهبة الدينية كانت هى قوتها
وسلطاتها.

وكل ما تقدم من مزاج موضوعية وفنية تجعلنا مقرر - علمتين أن
هذه الخطبة الخالية من حرف الرائ واقعة من روائع الإبداع فى تراثنا الأدبى،
وأن صاحبها قد ملك النروع الخطباءى، والمقربة الأسلوبية، ومقام الآلة فى
البلاغة والبيان، والقدرة الصحية للثورة للشهقة على الاستغناء عن حرف هو
من أكثر الحروف دوراً فى الكلام.

هذا، وقد سجل كل من ابن شاكز، وابن العماد الحنبلى لواصل من
عطاء احتمالات أخرى لهذا الحرف، فقال الأول: «إن واصلًا قد امتحن - مرة -
فى قراءة سورة التوبة، فقال - من غير فكر ولا روية - : "عهد من الله وبه إلى
الذين عاهدتم من العاسقين - يحوا فى البسيطة هلالين وهلالين"، وذكر
الثانى : «أن واصلًا دفعت إليه رقعة مضمونها : "أمر أمير الأسراء الكرام أن
تغفر لهم على قارعة الطريق فيشرب منها الصادر والوارد" فقرأ واصل على

الفرور : "حكم حاكم الحكام الفخام أن ينشحب على جادة المشى فيستقي منه الصادي وندادى".

وأنا سمي الحقيقة - خير رهي عن احتياطات واصل امرء في فرغته
لصبر سورة التوبة، مهما كان خلفه إنيها، فإن ما صمعه فربح بكثرة من قبح
لثقتي التي اضطرته لذلك، فإن كلام الله وحى معلوم مقس لا تغير ألفاظه
تواردت لها مهما كانت الظروف والأحوال :

وعلى كل حال، فإن ما ذكره ابن شاكرك الكشي وبهر "صلا، المهنسي
هو دلالة على أن واصلًا كان يتخرج من هذه العادة كما أحسن، وأنه كان
يشعر بها شعورًا مستندًا بنفسه إلى تجنب الوقوع في أشراكها على مسمع من
الناس، حتى لو كان المقام مقام تلاوة الآية من القرآن الكريم، يخشونه الناس خوفاً.
على أن ذلك يوحى بأن لثقتي الشبهة في النطق بالراء قد ذلت بين الناس،
فكان البعض منهم يداعبه على خلوها، ويحين القصر للشر به وبها.

ولقد كانت لثقة واصل وما نجم عنها من تجنبه حرف الراء مثبهاً ثرا
استقى منه نفر من الشعراء بعض صورهم وتشبيهاتهم وحاول آخرون أن
يتحروا نهجه في إسقاط هذا الحرف من تجلرهم الإبداعية.

هذا هو أبو محمد الخازن يقول من قصيدة مدح بها الصاحب

إسماعيل بن عباد :

نعم، تجنب "لا" يوم الخطب كما
تجنب "أين طلاء" نغمة "السراء"
وقال الأرحطى :

عجز السراء واصل بن عباد
ولنا سوف نهجس القاف وتروا
في خطاب اليزيد من الغنماء
مع القناد من حروف الهجاء

وقال آخر حتى محبوب له ألتج -

أبعد لثقة لو أن "وإصل" - - - - -
 نيسمها، ما أمتد لونه وأصل

وقال آخر

أجبتني ومني سر - لم تفتح - - - - -
 وأجبتني حتى - - - - -

وقال آخر

لج - - - - -
 - - - - -

الإمام الشافعى

أدب الفقه .. وفقه الأديب

قبل الحديث عن شعر الشافعى يحسن بنا إعطاء لمحة قصيرة عن حياة الرجل فهو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى القرشى ولد فى غزة بفلسطين سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ، ثم جاءت به أمه إلى مكة وله من العمر سنتان ، حفظ القرآن الكريم ، ودرس الحديث لأشرف وهو صغير ، وأقام فى الهنديين سبع عشرة سنة فأخذ عنهم اللغة العصبية ، وروى أشعار شعرائهم ، حتى إن الأسمعى قرأ عليه شعرهم .

لقى الشافعى مالك بن أنس ، فحفظ الموطأ ، وقرأ عليه ، ثم زار اليمن فلما ظهر فيها يحيى بن على بلعمه فجئ به مع تسعة من الطويعين إلى هارون الرشيد ، فضرب أعناق التسعة ، وعفا عن الشافعى رحمه الله لعلمه ولصاحته ورعه وتقواه .

وبقى الشافعى فى بغداد مدة ، ثم تنقل بين بغداد ومكة ومصر مرات متقاربة وكان نزوله مصر فى ٢٨ شوال سنة ١٩٨ هـ (٢١ / ٦ / ٨١٤ م) . ولما ذهب إلى مصر قال :-

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| لقد أصبحت غسى توفى إلى مصر | ومن دونها أرض المهامة والفقر |
| فوافقه آدمى الفنون والفنى | أساق إليه أساق إلى القبر ؟! |

وما ذهب للشافعى إلى مصر إلا إلى قبره ، فقد توفى فيها يوم الجمعة
أحر يوم من رجب سنة ٢٠٤ هـ (٢٠ / ١ / ٨٢٠ م) ، ودفن فى القسطاط
(بمصر القديمة) بالقرافة الصغرى ومقامه ومسجده مشهوران إلى اليوم .

كان الشافعى أحد الأئمة الأربعة وصاحب المذهب المعروف باسمه ،
كان عالماً بالحديث وفقه واللغة والأدب والنجوم والأنساب وقد عرف بالدكاء ،
والفطنة والفراصة .

ديوانه -

للشافعى ديوان شعر صغير يضم ٤٥٠ بيتاً ويحوى ١٣٠ مقطوعة
تقريباً ، فجميع ديوانه مصبوب فى قوالب المقطوعات إلا بصع قصائد لا تزيد
أطولها عن خمسة عشر بيتاً ، ويمكن إرجاع الأغراض الشعرية فى ديوانه
إلى الحكمة ، والزهد ، وشئ من الفخر بالنفس .

الحكمة -

كانت الحكمة عند الشعراء العباسيين تمتد أصولها من روافد أربعة هى :

١- الفكر .

٢- النفاذ .

٣- الاطلاع على الحكمة الأجنبية الواردة من الفرس والروم
والهنود وغيرهم .

٤- الإلمام بالثقافة العربية من شعر ونثر ، وغنى حياة الشعائر
بالتجارب الذاتية .

وقد كان الشافعي عربى للثقافة ، وناقد العكرة ، خبيراً بأحوال الناس مجرباً لهم ، ولو أطلع على للثقافة الأجنبية لاكتسب شعره عمقاً ، وبراء ، لكنه كان يرى فى كل علم غير علوم القرآن والسنة وسوسة من وساوس الشيطان يقول :-

حكل العلوم سوى القرآن مشقة إلا الحديث وعلم الفقه فى الدين
المعلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذات وسواس الشياطين

وتتلخص حكمة الشافعي فى الدعوة إلى التسليم بالقضاء والقدر ، والحرص على السقاء والوفاء ، والسماحة ، والقناعة ، والأدب ، وحسن الخلق ، والتواضع ، وعزة النفس ، وفصل المكوث ، وكتمان الأمور ، والحث على العلم ، والسفر والاعتماد على النفس ، والدعوة إلى العفة وإكرام النفس ، وحفظ اللسان ومن أجمل ما قال فى ذلك :

دع الأيام فعل ما تشاء وطب قسا إذا حكم القضاء
وصكن مرجلاً على الأهوال جلدا وشيمتك السماحة والوفاء
ولا تخرج السماحة من بحيل فما فى الأمر الظلمات ماء
وهرزقك ليس يقصه التانى وليس ينزى فى الزهرى الماء
إذا ما كنت ذا قلب قسوع فأنت ومالك الدنيا سواء

وقال فى الدعوة إلى الصبر على طلب العلم :-

اصبر على مر الحفا من معلم فإن رسوب المعلم فى قسراته
ومن لم يذق مر العلم ساعة تجرع ذل الجهل طيلة حياته

تقرب عن الأوطان في طلب الملا
وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
تخرج مدواك حساب معيشة
وعلمه وآداب، وصحبة ماجد
وقال فى كتمان الأمور :-

إذا المرء أفضى سره بلسانه
ولا ر عليه غيره، فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سره
فصدر الذى يتودع السر أضيق
وقال فى الاعتماد على النفس :-

ما حك جلدك مثل ظفرك
فتول أنت جرح أسرك
وقال فى العفة :-

عفوا نفع نازحكم فى الحرير
وتجربوا ما لا يلحق بفساد
إن الزهاد يمان أقرضته
كان الوفاء من أهل بيتك فاعلم
وقال فى حفظ اللسان :-

احفظ لسانك أبها الإبان
لا يلدغك إلا به شبان
سكر فى المنابر من قيل لسانه
كانت نهاب قاء الأقران

الزهد :-

وشعر الشافعى فى الزهد فرع من فروع للحكمة ، ويتلخص هذا الفن فى الاستعداد للمنايا ، والتأهب للأخرة والتوكل فى طلب الرزق على الله والشافعى يدعو إلى التفقه مع الزهد ، دون أن يطغى جانب على آخر فيقول :-

فتبها وصوفيا فكن ليس واحدا
فأنى وحق الله لى أنصح

فذلك فاس لم يصدق قلبه حتى وهذا جهول كيف دوا الجهل يصلح
ومن أجمل ما قال في الانصراف عن الدنيا ، والعمل للأخرة :-

يا من عاق دنيا لا يفتأ لها يسي ويصح في دياه سفارا
هلا تركت لذى الدنيا معاقبة حتى تعاق في المردوس أجكارا
إن كنت تبى حيانا لمخلد تحكها فيبغى لك أن لا تأمن السارا
والأجمل من ذلك قوله :-

مرحوبك العشر ينسبك المرحوب على ما كنت تركب من بقل ومن مر من
بور القبالة لا مال ولا ولد وضمة القبر تنسى ليلة المر من
والزهد يدعو إلى لزوم باب الله ، وإدامة قرعه بالثوبة والتذلل ، والاستغفار ،
فها هو يدعو ربه فيقول :-

لقد مننت على قلبي بمعرفة بأنك الله ذو الأكرام والقدس
وقد أتيت ذوما أنت تعلمها ولم تسكن فأضحي فيها فعل مسي
فأسن على بذكر الصالحين ولا تجعل على إغافى الدين من كبر
وهكن معي طول دنياي وآخرتي وبور حشري بما أنزلت في عبس

الفصل :-

ليس في فخر الشافعي شيء من المبالغة أو التبجح ، مع أن الفخر مذبح
للذات . والشافعي يفخر بذاته ، وعلمه وقناعته ، وعزة نفسه ، والتوكل في

ورقه على الخالق ، فما دام عنده قوت يومه (فقد حيزت له الدنيا بحذيقها)
، فما هو يقول :-

أنا لئن عشت لست أعدم قوتنا وإذا مت لست أعدم قبرنا

همنى هممة الملوك وقسى نفس حمر ترى المدلة كفى

وإذا ما قعت بالقوت عمري فلماذا أتوهم نريدا وعمرا

وبرى في نفسه أجل ولكبر من نفوس الثورى حين ازدهاء خلاق لتليبه الرثة
لقل :-

على ثياب لوتاج جرمها بفس لكان الفس منهن أكسرا

وفين نفس لو قاس بمـضها قوس الثورى فكانت أجل وأكسرا

وما صر نعل السيف إخلاق عنده إذا كان عضبا حيث وجهته فرى

وقال في استقلال شخصيته :-

ولست بأمة في الرحا ل أسأل هذا وذالما الخبير

وقال يفتخر بذاكرته التي تحفظ علمه أينما كن :-

إن كنت في البيت كان العلم فيمى أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وقال يفتخر بجوده وتعليم أمره الله :-

أجود بموحودى ولو بت طابوا على المجموع كشحا والشحا يتألم

وأظهر أسباب الفس من مرضى ليخفى لهم حالى وإنسى لعدم

وبس وبين الله أشكو فاقسى حقيقا فإن الله بالحال أعلم

ما يستشف من شعره :-

إن من يقرأ ديوان الشافعي يلاحظ علمه بطبائع النفوس ، وخبرته
بأحوال الناس وكثيرا ما كان يلبس ثوب المرشد ، والطبيب للحائق ، فقال في
١ موقف الناس من ذوى العسر واليسر :-

قلبت في دهرى رخاء وشدة وتاديت في الأحياء هل من مساعد
فلم أرى فيما سامى غير شامت ولم أرى فيما سمرى غير حاسد

وكان الشافعي محبا للصالحين لنتاله بركتهم ، فيقول :-

أحب الصالحين ولست بهم لعل أن أنال بعد شعاعه
وأكره من تجارته المعاصى ولو حكا سواه فى البضاعة

وبين أن العلم لا يتم تحصيله إلا بالتفرغ ، فقال :-

لا يدرك الحكمة من عمره يحكدح فى مصلحة الأهل
وينسب الالط إلى أفتى خال من الأفكار والشغل
لو أن زمان الحكيم الذى سارت به الركبان بالفضل
بلى بفسر وعيال لما فرق بين التبيين والبطل

وجعل الشافعي الأمراض فى ثلاثة :-

ثلاث من مهلكة الأناس وداعية الصحيح إلى المقام
دوام مدامة ودوام وطء وإدخال الطمار على الطمار

وجعل لتحصيل العلوم ستة شروط هي :-

ذكاء وحرص ، واجتهاد وبلغة وصحة أستاذ وطول زمان .

الصور الخيالية في شعره -

إن ما بلغت للنظر في ديوان الشافعي كثرة لجوئه إلى التشبيهات لا سيما التشبيه للضمني الذي يقوم على تشبيه حالة بحالة فشيء على سبيل المثال :
اختلاف الناس في الأدب والعقل والحب ، واتفاقهم في أشياء أخرى بالصفرة
في الذهب الأبريز ، والدحان الذي يفرق بين عود الطيب ، وعود البخور وفي
دعوته إلى السفر يشبه للمقيم بالماء الراكد الذي يفقد ركوده ، ويشبه المسافرين
بالماء الجاري الطيب ، ولذلك فإن الأسد لو لم يفارق أجمته لما افترس ،
والسهم لو لم يفارق القوس لم يصب ، والشمس لو لم تغرب لملها الناس ،
والذهب في أرضه تراب وعود الطيب في أرضه حطب . وشبه سكوت
الشريف عن مخاصمة الجاهل صونا لعرضه بصمت الأسد الذي يزيده مهابة .
وشبه كلام الجاهل بنجاح الكلاب الذي يدعو الناس إلى زجرها .

وضرب مثلاً لنقلات الزمن فقال :-

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| أما ترى البحر تلوف فوقه جيب | وتستقر بأقصى قاعه الدمر |
| وفي السماء نجوم لا عداد لها | وليس يحكف إلا الشمس والقمر |

ووصف للواعظ بأمر الناس بما لا يفعل ، فقال :-

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| كحامل ثياب الناس يضلها | وثوبه غارق في الرجس والعس |
| تبغى العجاة ولم تسلك طرقها | لأن السفينة لا تجرى على اليس |

وشبه حال الورع الذى يذجره ورعه عن تتبع عورات الناس بحال
المريض الذى شغلته علقه عن علل الناس ، وبين أن الأمر ليس بالقوة فقال :-

أكل العقاب قوة جيف الفلا وحى الدباب الشهد وهو ضيف

ودعا إلى الرحيل عن أرض النذل ، وضرب الأمثال المضحجة على ذلك فقال :-

فالمسرح الحرام مروت فى موطنه وفى التعريب محمول على المنف

والكحل نوع من الأحمار تظهر فى أرضه وهو مرسى على الطرف

لما تعرب حائر الفضل أجمله فصار يحمل بين الجحش والحديق

وكل هذه الصور والتشبيهات توليدية مبتكرة يتناول فيها المعنى القريب
فيصوره بصورة مختلفة تزيد المعنى المراد تأكيداً فأكسب الأبيات نفساً شعرية
متميزاً ، ولولاها لكان شعر الشافعى إلى نظم الطمأنينة أقرب منه إلى شعر
الشعراء .

الأسلوب -

تميزت أشعار الشافعى بالألفاظ السهلة فى ألفاظها والوضوح فى
عباراتها وقد لجأ إلى الأسلوب المباشر فى تقديم النصيح والإرشاد فأكثر من
ضمائر المخاطب كقوله : دع ، صن ، عاشر ، سلمح ، وغيرها وأغلب ألفاظ
الشافعى ومعانيه مقتبسة من ألفاظ القرآن والسنة وفيما تقدم من شعره دليل
ذلك .

ومن أشعاره ما يمكن اختصاره فى جملة واحدة . نل على ذلك
الترجمة التى تسبق كل قطعة ، ومثال ذلك : الدهر يومان يوم لك ويوم عليك ،

من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، وكلن الشافعى بعيدا عن التكلف ، غير مهتم بالصناعة اللغوية ولم يعتمد التكلف إلا فى مقطوعة واحدة نظمها فى عرة النفس ، وحشد فيها للكثير من الجناس والتجنيس فقال :-

| | |
|--------------------|--------------------|
| وتزعج قمر ورد أسس | تقطع ضرس وضرب حبس |
| ودمع جلد بسير شمس | وقر برد وقوة ورد |
| وصرف حب أمراض فرس | وأكل ضب وصيد دب |
| وبيع دار برمسع فلس | وتعج ناس وحمل عامر |
| وضرب ألف بحبل فلس | وبيع خوف وعدم أرف |
| يرجو والاباب خمس | أهون من وقفة حجر |

الموسيقى فى شعره :-

نظم الشافعى بيوته على القوافى التالية :-

للنون ٤٨ ، الراء ٤٦ ، الميم ٤٠ ، الدال ٣٨ ، الألف المقصورة ١٣ ،
اللام ٣٥ ، السين ٣٤ ، القاف ٣٣ ، الحين ٢٠ ، الباء ٢٠ ، التاء ١٨ ،
الهمزة ١٧ ، للجيم ١٠ ، الصاد ٧ ، الكاف ٧ ، للضاد ٦ مقطوعات ،
ولناظر فى هذا الترتيب للقوافى يلاحظ أن الشافعى نظم أغلب أبياته على
النون والراء ، والميم ، والدال ، واللام ، والسين ، وكلها قوافى تقليدية عند
كل الشعراء .

وأما القوافى الأخرى كالضاد فلم ينظم عليها إلا قليلاً . وأما البحور
الشعرية التى جعلها قوالب لشعره فهى كما يلى :-

الطويل ٤٣ ، البسيط ٢٧ ، الوافر ٢٠ ، الكامل ١٩ مقطوعة . وكلها بحور تقليدية ، مجزوء للكامل ٢٦ ، الخفيف ٥ ، الرمل ٣ ، المتقارب ومجزوء الرمل والمنصرح ١ ، السريع ١ مجزوء للرجز ١ .

والملاحظ أنه نظم شعره على بحور طويلة فإذا التفت مع قوافي النون للوار والراء والميم واللام أعطت الشعر تموجات واهتزازات تساهم في التصبير عن المعاني المراد التعبير عنها أكثر مما تؤديه البحور السريعة والقوافي الخشنة كالنساء والدال والنون وغيرها ولم يهتم الشافعي بحيز البحر والقافية من عناصر الموسيقى ، فلم يوفر لشعره التقسيمات الداخلية ، ولم يحيا بموسيقى الحروف إذا التفت للكلمة الواحدة إلا في مقطوعة عزة النفس التي سبق ذكرها فقد كان كل اهتمامه بتوصيل المعنى الذي يريد به بأسر الطرق .

خصائص شعره :-

لا يجد القارئ لديوان الشافعي إلا غرضاً واحداً نظم فيه أشعاره ذلك هو الحكمة ويتفرع من للحكمة دعونه إلى الزهد ، والاقتداء به في علمه ، وعزة نفسه وهذا ما يفسر لجوءه إلى شيء من الفخر بالنفس فخراً ليس فيه شيء من المبالغة .

وقد كانت حكمة الشافعي حكمة بناء ، توجه الناس إلى اتباع ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم في الدنيا والآخرة فكان من للطبيعي أن يتكئ على المعاني والقرآن واللسنة ويحملها شعره ، فكان واعظاً يرسم الطريق الواضح للمؤمنين ولذلك فله لجأ إلى الأسلوب المباشر في الوعظ ، مع أنه كان يضرب الأمثال التي اكتسبت نظمه نفساً شعرياً مميزاً . ولا ينتظر من الشافعي

وهو أحد الأئمة الأربعة أن يمدح عظيماً من العظماء أو يهجو سعيهاً من
السهاء أو يتغزل بجارية صناء فهو للقاتل :-

سهرى تتفتح العطور أولى من وصل غانية وطيب عناق

ولم يكن الشافعى طویل النفس فى شعره فليس أغلب ديوانه إلا
مقطوعات ، ذلك أنه ما كان يقول الشعر إلا ليأمر بمعى كريم أو لينهى عن
قبيح أو لأنه كان يقول الشعر فى مناسبات تعرض له حين يسأل عن مسألة ،
أو تحدث لحادثة وللشافعى مقدرة على المناظرة الشعرية ، وفى ديوانه شواهد
على ذلك .

وأخيراً فإن الشافعى لم يكن إلا شاعر للحكمة ، والمواعظ الخيرة .. لم
يكن من الشعراء الذين يتبعهم الغليون بل كان من الذين آمنوا وعملوا
الصلاحات وذكروا الله كثيراً وقد كان يرى للشعر مزرية بالعلماء ، ولولا ذلك
لكان لشعر من لبيد بن ربيعة فما هو يقول :-

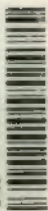
ولولا الشعر بالعلماء ينهرى لمسكت اليوم أشعر من لبيد

ولئن كان الشافعى لم يكن فى شعره كفته الذى طبقت شهرته الأفاق
فإن له من الشعر ما تشتهر فى الناس وانتشر على ألسنة المؤمنين فى تكثير
الفجر فرحم الله الإمام الشافعى وجزاه عن أمة محمد ﷺ ودين الله خير الجزاء .

المحتويات

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---|
| ٢ | الاختيار الأول : من أمثال العرب |
| ٤ | القيمة الأدبية للأمثال |
| ١٧ | القيمة الفكرية للأمثال |
| ٢٦ | الاختيار الثاني : من النثر الفنى القديم . تصوير الجاحظ لطبائع البهلاء |
| ٧٩-٤١ | الاختيار الثالث : من عيون الشعر القديم |
| ٤١ | ١- قصيدة الجميح |
| ٤٦ | ٢- نائية الشفرى |
| ٥٧ | ٣- قصيدة المتنبي |
| ٨٣ | الاختيار الرابع : قصة موسى مع الخضر |
| ١٠١ | الاختيار الخامس : خطبة الوداع |
| ١٢١ | الاختيار السادس : خطبة واصل بن عطاء الخالية من حرف الراء . |
| ١٢٩ | الاختيار السابع : الإمام الشافعى شاعرا |

Eastern Hemisphere



1132613